دكتور
العجمي دمنهوري خليفة
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بجامعة الأزهر بسوهاج

اللُّبَابُ

في البر والصلة والآداب

الطبعة الرابعة

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الجزء الثاني

٣٠ - إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال: إياكم والظنَّ ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث ولا تحسَّسُوا ، ولا تجسَّسُوا ، ولا تناجشُوا ، ولا تحاسَدُوا ، ولا تباغَضُوا ، ولا تدابَرُوا ، وكونوا — عِبادَ الله — إخوانًا متفق عليه(١) .

الشرح والبيان

قوله ﷺ « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »

تحذير من ظن السوء ، وهو التهمة التي ليس لها سبب ، فالمراد بالظن هنا ظن السوء الذي لا يدل عليه دليل ، ولا تقوم عليه قرائن قوية ، فمثل هذا الظن لا يجوز إقرار القلب عليه ، ولا العمل بموجبه ومقتضاه .

قال القرطبي : المراد بالظن هنا وفي الآية : التهمة التي لا سبب لها ، كمن يتهم رجلا بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها ، ولذلك عطف عليه قوله (ولا تجسسوا) وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويسمع فنهى عن ذلك ، وهذا حديث يوافق قوله تعالى (اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا) فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة ، لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن ، فإن قال الظان : أبحث لأتحقق قيل له : ولا تجسسوا ، فإن قال : تحققت من غير تجسس قيل له : ولا يغتب بعضكم بعضا .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في البر والصلة والآداب .

قال بعض شيوخنا : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها أن كل مالم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظن الفساد به والخيانة محرم بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطى الريب ، والمجاهرة بالخبائث ، كالدخول إلى الحانات أو الخروج منها ، ومصحبة الغوانى الفاجرات ، وعدم الترفع عن مواطن الريب ، فلا حرج فى ظن السوء به ، وإن لم يره الظان يشرب أو يزنى أو يقترف المآثم ، ولا عليه لو احتاط منه وتحرز .

وفى الأول — وهو إحسان الظن بالمسلم المستور الذى ظاهره الخير والصلاح — ورد قوله ﷺ « إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » .

وفى الثانى — وهو إساءة الظن بمن لا يبتعدون عن مواطن التهم — وردت كلمة الحسن البصرى رحمه الله « كنا فى زمن الظن بالناس فيه حرام وأنت فى زمن : اعمل واسكت ، وظن فى الناس ما شئت » .

ومن النصائح الغالية والحكم العالية ما أخرجه البيهقى رحمه الله فى « شعب الإيمان » عن سعيد بن المسيب قال : كتب لى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله ﷺ :

« أن ضع أمر أخيك على أحسنه مالم يأتك مايغلبك » .

« ولا تظنن بكلمة خرجت من امرىء مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير محملا » .

« ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه » .

« ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده » .

« وما كافيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه » .

« وعليك بإخوان الصدق ، فإنهم زينة في الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء » .

« ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى » .

« ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون » .

« ولا تضع حديثك إلا عند من يشتهيه » .

« وعليك بالصدق وإن قتلك » .

« واعتزل عدوك ، واحذر من صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى » .

« وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب » .

هذا واقتران الظن بما بعده من الرذائل قرينة واضحة على أن المراد به هنا ما بيناه من سوء الظن بالمسلم المستور الذى ظاهره الخير والصلاح .

وإذن فليس المراد بالظن ما يتعلق بالاجتهاد الذى يتعلق بالأحكام أصلا ، بل الاستدلال بالحديث لذلك ضعيف أو باطل — كما قال النووى:

وقوله « فإن الظن أكذب الحديث» .

أى أكثر أنواع الكلام كذباً . هذا وقد استشكل وصف الظن بأنه كذب بل أشد أنواع الكذب مع أنه ليس قولا ؟ وقد أجيب عن ذلك بجوابين مشهورين :

الأول : أن المراد بالكذب هنا عدم المطابقة للواقع مطلقاً أى سواء كان ذلك قولا أو فعلا .

الثانى : احتمال أن يكون المراد ما يلتبس عن سوء الظن من الكلام ، فوصف به الظن مجازاً .

وربما كان المراد بالحديث هنا حديث النفس ، وهو وجه ثالث .

وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث — مع أن تعمد الكذب الذى لا يستند إلى شىء أصلا أشد من الكذب الذى يستند إلى الظن — فللإشارة إلى أن الظن المنهى عنه هو الذى لا يستند إلى شىء يجوز الاعتماد عليه فيعتمد عليه ويجعل أصلا ويجزم به فيكون الجازم كاذباً ، وإنما صار أشد من الكذب ، لأن الكذب فى أصله مستقبح ، مستغنى عن ذمه ، بخلاف هذا ، فإن صاحبه يزعم مستند إلى شىء ، فوصفه بكونه أشد الكذب مبالغة فى ذمه والتنفير منه ، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالباً ووضوح الكذب المحض .

« ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا » :

الكلمة الأولى بالحاء المهملة ، والثانية بالجيم . وفى الكلمتين حذف إحدى التاءين تخفيفاً ، وكذا فى بقية كلمات الحديث المنهى عنها حذفت تاء المضارعة .

وأصل الكلمة التى بالحاء من الحس ، وهو الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، وهى السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس .

وأما التى بالجيم فهى من الجس ، وهو اختبار الشىء باليد ، وهى إحدى الحواس ، فتكون التى بالحاء أعم من جهة مأخذها اللغوى ، ثم أريد بالكلمتين لازم ذلك ، وهو البحث عن عيوب الناس ، والكشف عن أسرارهم وأستارهم .

وقد اختلف أهل العلم فى هاتين الكلمتين : هل هما بمعنى واحد ، أو مختلفتان ؟

ـ فقيل : إنهما بمعنى واحد ، وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأمور المستورة ، وعيوب الناس ، وعلى هذا فالثانية تأكيد للأولى .

ـ والراجح أنهما مختلفتان ، وفى الفرق بينهما أقوال :

(أ) فقيل : التجسس ـ بالجيم ـ البحث عن بواطن الأمور ، وأكثر ما يستعمل فى الشر ، ومنه الجاسوس ، وبالحاء : البحث عما يدرك بالعين والأذن .

(ب) وقيل : بالجيم : أن تتبع لأجل غيرك ، وبالحاء أن يكون ذلك لنفسك .

(ج) وقيل : بالجيم . البحث عن عورات الناس ، وبالحاء الاستماع إلى حديث القوم وهم كارهون .

(د) وقيل : التجسس ـ بالجيم ـ فى الشر ، والتحسس ـ بالحاء ـ فى الخير . ومنه قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : (يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) (يوسف : ٨٧) .

وهذا الرأى ـ بفرض أنه صحيح ـ غير مراد بالنهية للتحسس ، لأنه لو كان كذلك لما كان منهيا عنه .

وأقوى هذه الآراء هو القول باختلاف معنى الكلمتين ، وأن المراد بالكلمتين فى الحديث النهى عن تتبع عورات الناس وعيوبهم الظاهرة والباطنة ، ومحاولة التعرف إلى ما يخفونه ويستورونه من أمرهم ، سواء كان ذلك بنفسه أو بغيره ، وسواء كان بالعين أم بالأذن أم بآلية .

« ولا تناجشوا » :

النجش : هو أن يزيد فى ثمن السلعة ، وهو لا يريد شراءها ؛ بل ليغر غيره ويوقعه فيها فيشتريها بثمن أكثر ، وهو حرام .

قال الحافظ ابن حجر: ويقع النجش بمواطأة البائع فيشتركان فى الإثم، ويقع بغير علم البائع فيكون إثمها على الناجش وحده، وقد تختص بالبائع كمن يخبر بأنه اشترى سلعة بأكثر مما اشتراها ليغر غيره بذلك.

والنجش فى اللغة: تنفير الصيد واستثارته من مكانه ليصاد، وقال ابن قتيبة: هو الختل والخديعة، ومنه قيل للصائد: ناجش، لأنه يختل الصيد ويحتال له. وبهذا تفهم المناسبة بين المعنى اللغوى للكلمة والمراد بها فى عرف الشرع.

قال ابن بطال: أجمع العلماء على أن الناجش عاص بفعله، واختلفوا فى البيع إذا وقع على ذلك.

— ونقل ابن المنذر عن طائفة من أهل الحديث فساد ذلك البيع، وهو قول أهل الظاهر، ورواية عن مالك، وهو المشهور عند الحنابلة إذا كان ذلك بمواطأة البائع أو صنعه.

— والمشهور عند المالكية فى مثل هذا ثبوت الخيار، وهو وجه للشافعية قياساً على المصراة.

— والأصح عندهم — أى الشافعية — صحة البيع مع الإثم، وهو قول الحنفية.

« ولا تحاسدوا »:

قال الحافظ ابن حجر: الحسد تمنى الشخص زوال النعمة عن مستحق لها، أعم من أن يسعى فى ذلك أو لا، فإن سعى كان باغياً، وإن لم يسع فى ذلك ولا أظهره ولا تسبب فى تأكيد أسباب الكراهية التى نهى المسلم عنها فى حق المسلم نظر، فإن كان المانع له من ذلك العجز

بحيث لو تمكن لفعل ، فهذا مأزور ، وإن كان المانع له من ذلك التقوى فقد يعذر ، لأنه لا يستطيع دفع الخواطر النفسية ، فيكفيه فى مجاهدتها أنه لا يعمل بها ، ولا يعزم على العمل بها ، وقد أخرج عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية مرفوعا (ثلاث لا يسلم منها أحد : الطيرة ، والظن ، والحسد ، قيل : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذ حسدت فلا تبغ) .

وعن الحسن البصرى قال « ما من آدمى إلا وفيه الحسد ، فمن لم يجاوز ذلك إلى البغى والظلم لم يتبعه منه شىء » .

والأمور التى تدعو الإنسان إلى حسد غيره كثيرة ،

— فمنها بغض الحاسد للمحسود بسبب نعمة أسبغها الله عليه ، أو فضيلة خص بها أو منقبة ظهرت له — مع عجز الحاسد عن تحصيل ما منح الله لصاحبه من نعم وفضائل ومناقب — مع فساد سريرة الحاسد ، وخبث طويته ، وشحه بالفضائل ، وبخله بنعم الله على عباده .

وخير دواء للحسد أن يؤمن الحاسد بقضاء الله وقدره ، وأنه المعطى المانع ، الضار النافع ، المتصرف كما يشاء ، يعطى من يشاء ، ويخص برحمته من يشاء ، وأن خزائنه ملأى لا تنفد ولا تنقص ، وأن الإنعام على غيره من الناس بالنعم والمواهب ليس سببا فى التضييق عليه . وعليه أن يجاهد نفسه حتى يستأصل منها رذائلها من البغضاء والحقد والحسد . ومن أدرك ما فيه من عيوب ، وجاهد نفسه لتتطبع بالفضائل ، وتتخلى عن الرذائل ، واستعان بمولاه الذى هو على كل شىء قدير أعانه ربه ، ووفقه ، قال سبحانه (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين) (العنكبوت : الآية الأخيرة) .

هذا والحسد من الرذائل النفسية ، التى تمتد آثارها إلى صاحبها وإلى

غيره وتبدأ بصاحبها فتنغص عليه حياته ، وتسلبه نعمة الرضا والسكينة ، وتغرس فى نفسه من العداوة والبغضاء والقلق ما يغرقه فى ألوان شتى من الهم والقلق والحقد .

وهو حرام ، ولا يحل من الأحوال ، وما جاء فى بعض الأحاديث النبوية مما قد يفهم منه إباحة أنواع من الحسد فالمراد به باتفاق أهل العلم: الغبطة ، وهى : أن يتمنى أن تكون له من النعمة مثل ما للغير من غير أن يتمنى زوالها عنه .

قال ﷺ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » .

هذا والنهى عن الحسد ليس مقصورا على وقوعه بين اثنين كما هى صيغة التفاعل ، بل هو مذموم وحرام ، ولو وقع من جانب واحد ، لأنه إذا كان مذموما مع وقوعه على سبيل المكافأة والمجازاة فلأن يكون مذموما مع الابتداء بطريق اولى .

« ولا تباغضوا »

البغض من الأمور الوجدانية التى تحصل للإنسان من غير اختيار وكسب ، ومثل ذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، ومن هنا كان المراد بالنهى عن التباغض النهى عن تعاطى أسباب البغض ، فكأنه قال : لا تتعاطوا أسباب البغض كالتعدى على النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء الناس فى دينهم ودنياهم ، أو الحيلولة بين الناس وبين الوصول إلى حقوقهم أو تأخيرها — وهكذا .. إلى غير ذلك من أسباب التباغض .

على أنه ينبغى أن تعلم أن البغض المذموم والذى ينهى عنه النبى ﷺ

هو ما كان بغير حق ، كأن يكون لدنيا أو لحظ نفسي ، أما البغض في الله ولأجل دين الله فهو من الإيمان ، بل من كمال الإيمان ، ويثاب عليه صاحبه وفي الحديث الشريف « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الايمان » رواه أبو داود . فبغض المعاصي والفساق لفسقهم وعصيانهم ، ومخالفتهم لأمر ربهم ، وانتهاكهم حدوده ، واستحلالهم محارمه من الأمور المطلوبة شرعا . والمراد ببغضهم : كراهيتهم بالقلب ، وعدم الركون إليهم ، وترك البشاشة في وجوههم والتبسط إليهم بالقول حتى أن يزجروا عما هم فيه من إعراض عن ربهم ، وكفران بنعمه ، وإيذاء لعباده .

« ولا تدابروا »

اختلف العلماء في تفسير التدابر على أقوال :

— فقال الخطابي : لا تهجروا فيهجر أحدكم أخاه ، ماخوذ من تولية الرجل الآخر دبره ، إذا أعرض عنه حين يراه .

— وقال ابن عبد البر : معناه الإعراض ، وقيل للإعراض مدابرة ، لأن من أبغض أعرض ، ومن أعرض ولى دبره ، والحب بالعكس .

— وقال المازري : معنى التدابر : المعاداة يقال : دابرته أي عاديته . فهذه ثلاثة أقوال في بيان التدابر . وقد فسر الإمام مالك التدابر بأنه الإعراض عن السلام . إذ قال (ولا أحسب التدابر إلا الإعراض عن السلام يدير عنه وجهه) .

على أنه يمكن أن يقال : إن التدابر يبدأ بالإعراض وترك السلام ، ثم إن استمرا على ذلك فهو المهاجرة ، فإن استمرا على المهاجرة وقعت المعاداة ومن هنا نفهم حكمة الشارع في نهي المسلم عن استدامة هجر أخيه

المسلم فوق ثلاث ، قال ﷺ (لا يحل لمسلم أن يهجر مسلما فوق ثلاث : يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام) .

اللهم إلا إذا كان الهجر فى الله وله أسباب واضحة فإن ذلك لا بأس به ، وقد تعرض لذلك بالبيان والتفصيل فى مناسبة أخرى .

« وكونوا — عباد الله — إخوانا »

أى تعاملوا فى التواد والتراحم والتعاون والتحاب ، وشفقة بعضكم على بعض ، والمواساة والنصيحة والتناصر كما يتعامل الإخوة من النسب . وعباد الله فى الجملة نصب على النداء ، وإخوانا نصب على أنها خبر كونوا .

وفى التعبير بعباد الله إشارة إلى الرابطة التى تربط بينهم وهى العبودية لله تبارك وتعالى ، وهى عبودية أقبلوا عليها مختارين ، ورضوا بتبعاتها طائعين ، فما أحقهم أن يتآخوا بها ، ويتعاونوا على البر والتقوى تحت لوائها ، وفى رواية بزيادة (كما أمركم الله) وهى مؤيدة للقول بأن المراد بالعبودية هنا هى عبودية المؤمنين بالله وحده الذين رضوا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . والمراد الأوامر التى تقدمت فى هذا الحديث ، فإن هذه النواهى تتضمن الأمر بالتحاب والتآلف والتواد والتواصل ، ونسبتها إلى الله سبحانه لأن الرسول ﷺ مبلغ من ربه ، قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله (كما أمركم الله) يعنى بقوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) فانه خبر بمعنى الأمر كأنه قال : تعاملوا معاملة الإخوة . أيها المؤمنون .

ويؤخذ من الحديث :

— تحريم هذه الأمور التى نهى عنها فى الحديث ، وبيان الأحوال التى يعذر فيها المؤمن فى الظن أو المقاطعة أو نحوها .

— ما ينبغى أن يكون عليه التعامل بين المسلمين ، ووجوب إزالة الأخوة الدينية منزلة الأخوة النسبية .

— عناية الإسلام بكل ما يجمع شمل المسلمين ، ويبعد عنهم الشقاق والخصام ، ويجلب لهم المودة والمحبة والسلام .

والله ولى التوفيق ، والهادى لأقوم طريق .

لا حول ولا قوة إلا به ولا ملجا منه إلا إليه ؟

٢١ – المسلم أخو المسلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا — عباد الله — إخواناً، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله» رواه مسلم.

الشرح والبيان

هذا الحديث له علاقة بحديث أبي هريرة رضي الله عنه (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) بل يذهب علماء الحديث وأئمته إلى أن كل ذلك حديث واحد، وأن هذه الطرق روايات لهذا الحديث، تتفق في أشياء، ويزيد بعضها على بعض في أشياء أخرى، وقد قالوا كذلك: إن هذا الطريق الذي معنا أجمع الطرق التي روى بها هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأكبر الظن أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يحدث به حيناً مختصراً؛ وحيناً بتمامه.

وهو حديث جليل اشتمل على جمل كثيرة من الفوائد والآداب التي تبين علاقة المسلم بأخيه المسلم، وتذكره بالأخوة التي ربطها الله ووثقها بينهم بسبب هذا الدين، والتي تقتضي التجافي عن ظلمه وخذلانه، واحتقاره، وأن نظرة الإسلام إلى المسلمين لا تقوم على أساس الأحساب والأنساب، ولا الأموال، وإنما تنبع من التقوى، فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وهي المبادىء القويمة، التي استل الله بها ما كانوا عليه من صفات الجاهلية ورذائلها، وثبت بها ما أنزله الله في كتابه وأمر به من الفضائل التي أرساها الإسلام، وحض عليها نبيه عليه الصلاة والسلام.

ونقد سبق أن تناولنا شرح بعض جمل الحديث ولنبدأ فى شرح مابقى عنه فنقول : قوله ﷺ (المسلم أخو المسلم) المراد بالأخوة هى أخوة الإسلام لأنه الرابطة المقدسة بين المسلمين قال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ثم بين ﷺ أهم الحقوق التى تترتب على هذه الأخوة فقال (لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره) فجملة (لا يظلمه) وما عطف عليها وقعت موقع البيان والتفصيل لما تضمنه لفظ الأخوة من إجمال .

والظلم هو الجور ، ومجاوزة الحد ، ويطلق على نقص الحقوق أربابها ، وعلى وضع الشىء فى غير موضعه .

فمن حق المسلم على أخيه أن يعامله بالعدل والإنصاف ، وأن يتجنب فى التعامل معه الجور والحيف ، والنقص ، وأن يحذر انتهاك حرمته فى كل مايتعلق به من دين أو نفس أو عرض أو مال .

ومن حقه كذلك أن ينصره ، وأن يعينه فى الحق ، ولا يتخلى عن نصرته فى المعرف ، أما فى المنكر والباطل فلا يعينه عليه ، ولا يساعده فيه ، قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب) (المائدة : ٢) بل إن معونته على الحقيقة إنما هى فى كفه عن الظلم ، وزجره عن الشر والإثم ، فذلك فى الحقيقة نصره ، وهو نصر يختلف عما يفهم الناس من الغلبة على الخصم الظاهر ، إنه نصر على النفس ، وعلى الشيطان . وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا : يارسول الله ، هذا ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : تأخذ فوق يديه) .

ومن رذائل الجاهلية التى عاد إليها الناس فى كثير من الجهات ، فأشاعت فى الأرض الفساد ، وأقلقت البلاد والعباد ذلك التناصر والتعاون على الخير والشر ، والحق والباطل .

وإنه لمن الحمق والسفه بالله وآياته أن يحمل الرجل السلاح مع أمرته أو قبيلته وهو يعلم علم اليقين أنها على الباطل .

وإنه لمن الحمق والسفه أن يتقدم للشهادة أمام المحكمة وهو يعلم أنه يقول زوراً ويغشى فجوراً .

وإنه لمن الحمق وخطل الرأى أن يصر ناس على ذلك، ويتحالفوا عليه، ويتواصوا به ، ويربوا أولادهم وذراريهم عليه ، فيبوأوا بآثامهم وآثام من أضلوهم عن سواء السبيل ، ووطأوا لهم بذلك من الشر أسباباً ، وفتحوا به مسالك وأبواباً ، فإنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ومن حقه كذلك أن لايحقره ، أى لايستصغره ، ويستقل شأنه ، ولا يتكبر عليه ، بل إن على المسلم أن يحترم أخاه المسلم ، ويعرف له حقه ، فإن كان كبيراً لسن أو منزلة أو فضل علم أو صلاح فله حق الإجلال والتوقير ، وإن كان صغيراً فله حق الرحمة والتواضع ، قال ﷺ (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا) قال النووى : حديث صحيح رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح، وفى رواية أبى داوه (حق كبيرنا) .

— وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقسط) حديث حسن رواه أبو داود .

وهذه الحقوق التى ذكرها الحديث حقوق واجبة متعينة لايسع مسلماً إغفالها أو التقصير فيها طالما كانت له القدرة على القيام بها ، وهى تجعل المسلمين كالجسد الواحـــد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وهناك حقوق أخرى يجب على المسلمين القيام بها ، ولا يتعين على كل واحد القيام بها إلا فى أحوال خاصة ، فهى إذن من فروض الكفاية أو سننها فمن ذلك ماجاء فى الحديث الصحيح : حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس) رواه الشيخان . زاد مسلم (وإذا استنصحك فانصحه)

وقوله صلى الله عليه وسلم (التقوى ههنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات) أى أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك ثلاث مرات مع الإشارة إلى صدره الشريف ، وإنما فعل ذلك تأكيدا المعنى الذى قصده بكلامه ، وتثبيتا له فى النفوس حتى يعقله الناس ويتدبروه .

والتقوى هى الاستجابة لله تعالى بفعل المأمورات كالصلاة والزكاة والصيام وبر الوالدين وصلة الرحم ، واجتناب المنهيات كالربا والزنا والسرقة والخيانة ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر — وهى بهذا المعنى تتعلق بالأعمال الظاهرة . وتطلق التقوى ويراد بها ما استقر فى النفس من معرفة الله وخشيته والمسارعة فى مرضاته ، والفرار من مساخطه ، وهى بهذا المعنى محلها القلب ، وهذا هو ما أراده النبى ﷺ بقوله وإشارته فان الصدر هو موطن القلب قال تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ؛ فانها لا تعمى الأبصار ؛ ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (الحج : ٤٦) .

والتقوى إذا استقرت فى القلب ؛ وتمكنت من النفس صلح بها القلب وصلحت بصلاحه أعمال الجوارح ؛ وحبب إلى العبد فعل الخيرات والمسارعة فى المراضى والطاعات ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ؛ وقد أشار إلى ذلك الصادق المصدوق ﷺ فى الحديث الصحيح المتفق عليه (ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب)

قال الإمام القرطبي رحمه الله : التقوى مصدر اتقى، والمتقى هو الذى يجعل بينه وبين ما يخافه وقاية تقيه منه ، ومنه (اتقوا النار ولو بشق تمرة) (ولو بكلمة طيبة) . والمتقى شرعا هو الذى يجعل بينه وبين عذاب الله تعالى وقاية من الطاعة ، فإذن أصل التقوى الخوف ، والخوف ينشأ عن المعرفة بجلال الله تعالى ، وعظيم سطوته وعقابه ، والخوف والمعرفة محلهما القلب ، والقلب محله الصدر ، فلذا أشار إلى صدره فقال « التقوى ههنا » .

ومناسبة هذه الكلمة الشريفة لما قبلها أن النبي ﷺ لما بين أن من حق المسلم على أخيه المسلم أن لا يحقره - وكان الاحتقار إنما ينشأ فى الأعم الأغلب بالنظر إلى الأمور الظاهرة مثل الفقر ، وقلة المال وسوء المنظر ورثاثة الحال ، أو الافتقار مما يرفع الناس به بعضهم فى الدنيا من الحسب والنسب والجاه والسلطان بين ﷺ أن الله سبحانه لا يعبأ بالأحساب والأنساب ، ولا بالصور والأشكال ، ولا بالثروات والأموال ، ولا بالجاه والشرف والسلطان ، وإنما يزن الناس بما فى قلوبهم من تقوى تحجزهم عن السيئات ، وتحفزهم إلى فعل الخيرات ، والتقوى ليست فى المظاهر ، وإنما هى فى القلوب ، ورب إنسان مغمور لا يؤبه له ولا يلتفت إليه تكون له المنزلة العظيمة عند ربه بحيث إنه لو دعا ربه لأجابه ، ولو سأله لأعطاه ، ولو أقسم عليه لأبره .

ورب إنسان قسيم وسيم ، له الجاه والشرف ، والمال والنسب ، يسعى الناس إلى مرضاته ويحرصون على التقرب منه ، ويرون ذلك شرفا رفيعا ، وعزا منيعا ؛ وهو لا يساوى عند الله قلامة ظفر .

وقد نبى النبي ﷺ أصحابه على ذلك ، وحذرهم من الاغترار بالمظاهر والأشكال ؛ وأعلمهم أن العبرة عند الله إنما هى بالقلوب والأعمال وله فى ذلك أحاديث كثيرة سوف نسوق بعضها فى مناسبة أخرى

وأما قوله (بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم)

فالباء حرف جر زائد ، وحسب مبتدأ ـ ويقال فيه وفى نظائره ـ مرفوع بضمة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

وهو مضاف وامرىء مضاف إليه ، ومن الشر جار ومجرور متعلق بكلمة (حسب) إذ هى بمعنى (كافى) .

والمصدر المنسبك من (أن) ومادخلت عليه فى (أن يحقر) خبر المبتدإ

وهذه العبارة الشريفة وقعت موقع التأكيد لقوله ﷺ (ولا يحقره إذ أنها تتضمن النهى عن التحقير ، والتنفير منه ، أوهى علة لها .

وأما قوله : ﷺ (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه) .

فهو تقرير لمبدأ من أهم المبادىء الإسلامية ، ألا وهو حرمة الدماء ، والأعراض ، والأموال ، وأن من حق كل مسلم تأمين دمه وعرضه وماله ومعنى حرام أى محرم فلا يحل سفك دم مسلم إلا بحق الإسلام ، ولا أخذ ماله بأى طريق ، ولا انتهاك عرضه ، ولا العدوان عليه بإيذائه والتضييق عليه . . .

وفى قوله ﷺ (كل المسلم على المسلم حرام) تعميم لحرمة كل مامن شأنه إيذاء المسلم والإضرار به ، وإشعاره بالقهر والمهانة ، وأما قوله بعد ذلك (دمه وعرضه وماله) فهو تفصيل بعد إجمال ببيان أهم الوجوه التى يكون فيها العدوان على المسلم ، ويلحق به كل مايؤذيه ، ويضيق عليه ، يدل لذلك قول الله سبحانه (والذين يؤذون المؤمنين المؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) (الأحزاب : ٥٨) .

وفى تقديم المال على العرض مع أن المرء يغار على عرضه أكثر مما يغار

على ماله تأكيد لحرمة الأموال حتى لا يتساهل أحد فى العدوان على المرء فى ماله بأية وصيلة من الوسائل .

وفى حجة الوداع خطب النبى ﷺ خطبته المشهورة يوم النحر ، والتى أكد فيها فى هذا الجمع العظيم حرمة الدماء والأموال والأعراض ، فكان مما قال فيها (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ، ثم قال : ألا هل بلغت قلنا : نعم ، قال « اللهم اشهد » متفق عليه .

ومثل المسلم فى هذا كله الذمى الذى له ذمة الله ورسوله - وفى الحديث الشريف (لهم مالنا وعليهم ماعلينا) . وإنما اقتصر ﷺ على ذكر المسلم لأنه كان بصدد بيان حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وبيان حقوق هذه الرابطة المقدسة التى أقامها الله بدينه بينهم .

تلك هى الحقوق التى كفلها الإسلام لأهله ، ولكل من يستظل بلوائه ويسكن فى دياره من أهل الذمة ، وهى حقوق تصلح عليها الجماعات ، وتستقيم وتعز بها الدول ؛ والأسف فإن كثيرا من الحكام والولاة والشعوب تنكروا لها ؛ فاختلت الأحوال ، وساءت الأمور ، وتأخر المسلمون ، وانهزم المسلمون داخل أنفسهم ، وأصابهم من الذل والصغار مالن يرتفع عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم ، ويستمسكوا بتعاليمه حكاما ومحكومين ، قادة ورعية ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ويؤخذ من الحديث :

١ — حرص الإسلام على كل ما يجلب الوئام ، ويدفع الشقاق والعدوان والخصام .

٢ — أن المؤمنين إخوة ، وأن عليهم التناصر والتعاون ، وأن من حق هذه الأخوة ألا يظلم المسلم أخاه أو يخذله أو يحتقره .

٣ — التقوى هي أساس التفاضل عند الله ، وينبغي أن تكون كذلك عند المسلمين ، وأنه لا ينبغي أن يحقر المسلم أخاه المسلم لضيق حاله ، أو قلة ماله أو رثاثة ثوبه ، أو دمامة وجهه وصورته .

٤ — التقوى محلها القلب ، والأعمال الظاهرة إنما هي دلائل عليها وآثار لها ، والمعول عليه عند الله سبحانه تقوى القلب .

والله المستعان ، لا حول ولا قوة إلا به ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

٢٣ — إنَّ أكرمَكُم عِندَ اللهِ أتقاكم

عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ (إنَّ الله لا يَنظرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم ، ولَكِنْ يَنظرُ إلى قُلُوبِكم وأعمالِكم) .

رواه مسلم — وفى رواية أخرى (إن اللهَ لا ينظرُ إلى أجسادِكم ، ولا إلى صورِكم ، ولكن يَنظرُ إلى قلوبِكم ، وأشار إلى صَدْرِه) .

الشرح والبيان

الصور : جمع صورة ، وهى الشكل ، قال فى القاموس : الصورة بالضم الشكل جمعه صور وصور كعنب — أى بضم الصاد وكسرها — وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة . والأجساد : هى الأجسام .

والنظر يأتى بمعنى الرؤية ، وهو بهذا المعنى يتعلق بجميع الخلق ، فلا يتأتى إثباته فى حال ، ونفيه فى حال — لأنه دائم ثابت .

ويأتى بمعنى المجازاة والإثابة ، وهو المراد فى الحديث .

وإذن فالحديث يتضمن القرينة القاطعة على المعنى المراد من النظر كما سبق أن أشرنا وبينا .

قال الإمام النووى فى بيان معنى الحديث : ومعنى نظر الله هنا مجازاته ومحاسبته أى إنما يكون ذلك على ما فى القلب دون الصور الظاهرة ، ونظر الله رؤيته محيط بكل شىء ، ومقصود الحديث أن الاعتبار فى هذا كله بالقلب ، وهو من نحو قوله (ألا وإن فى الجسد مضغة الحديث) انتهى .

وهذا الحديث يعالج أمرا فى غاية الأهمية ، فقد كان الناس فى الجاهلية ،

ولا يزال كثير منهم اليوم ينظرون الى الناس ويقدرونهم بجسامتهم وقسامتهم، وأموالهم وثرواتهم، فإن رأوا الجسيم الوسيم ، الغنى الثرى قدروه، وأجلوه ، وإن رأوا من كان من هذه المظاهر فقيراً ازدروه واحتقروه .

فبين لهم النبي ﷺ أن الله سبحانه لا يقدر الناس ويجازيهم ويثيبهم على هذه الأمور الظاهرة ، وانما يجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان أو كفر ، ورضا أو سخط ، وإقبال على الله أو إعراض عنـــه ، وهكذا . . وعلى أعمالهم (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة : ٧،٨) .

فمن كان مؤمنا صالحا فهو عنده المقرب المكرم، ومن كان كافراً أو فاسقا فهو المطرود الذميم، ولا عبرة عنده سبحانه بهذه المظاهر وجوداً وعدما وقلة أو كثرة .

والخلاصة أن الرسول ﷺ يبين لنا أن العبرة ليست بالظواهر، وإنما بالبواطن والقلوب إذ هي مواطن الإيمان والكفر ، والهدى والضلال . والتقوى والفجور ، والنيات والإرادات .

— عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال : مر رجل غني على النبي ﷺ فقال: ما تقولون في هـذا ؟ قالوا : حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع ، قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : ما تقولون في هذا ؟ قالوا : حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يستمع ، فقال رسول الله ﷺ : هـذا خير من ملء الأرض مثل هذا ، متفق عليه .

— وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال (إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة) متفق عليه .

— وعنه رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (رب أشعث ، أغبر ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره) رواه مسلم .

وقد قال الله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) (الحجرات : ١٣) .

والله ولي التوفيق ، والهادي لأقوم طريق

لا حول ولا قوة الا به ، ولا ملجأ منه إلا اليه

٢٣ — لا تَغْضَبْ

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني ، قال « لا تَغْضَبْ » فَرَدَّدَ مِرَاراً ، قال : « لا تَغْضَبْ » ، تفرد به البخاري .

الشرح والبيان

أخرجه البخاري في كتاب الأدب — باب الحذر من الغضب .

قول أبي هريرة (أن رجلا) هو جارية بن قدامة ، وقد أفاد ابن حجر في الفتح أن الإمام أحمد في المسند ، وابن حبان في الصحيح له ، والطبراني في معجمه أخرجوه من حديث جارية مبهما ومفسراً .

وقد وقع نحو هذا السؤال وهذا الجواب لغير جارية رضي الله عنه .

ففي الطبراني من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي « قلت: يارسول الله : قل لي قولا أنتفع به وأقلل ، قال : لا تغضب ، ولك الجنة » .

وله أيضاً عن أبي الدرداء « قلت يارسول الله ، دلني على عمل يدخلني الجنة قال : لا تغضب » .

وفي حديث ابن عمر عند أبي يعلى « قلت : يارسول الله ، قل لي قولا ، وأقلل لعلي أعقله .

قوله (أوصني) تقدم في حديث سفيان وأبي الدرداء وابن عمر رضي الله عنهم الألفاظ التي طلب كل منهم النصيحة بها ، ولئن أضافت هذه الألفاظ شيئاً إلى هذا الحديث فإنها تدل على أن من وعى هذه النصيحة ، وعمل بها فإنها تكفيه وتشفيه ، ثم إنها تباعد بينه وبين غضب الله ، وتضمن له الجنة .

قوله (فردد مراراً) أى فردد السؤال مراراً يلتمس مزيداً على هذه النصيحة ، أو أبلغ ، أو أنفع ، أو أعم فلم يزده على ذلك ، ﷺ .

قوله (قال : لاتغضب) .

فى رواية عثمان ابن أبى شيبة (قال : لاتغضب ثلاث مرات) وفيها بيان عدد المرات ، وقد جاء فى حديث لأنس رضى الله عنه أنه ﷺ كان يعيد الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه ، وأنه كان لايراجع بعد ثلاث » .

أما قوله « لاتغضب » فقد اختلف أهل العلم فى المعنى الذى يتوجه إليه النهى ههنا ، وذهبوا فى فهم الكلمة مذاهب شتى ، ونحن نعرضها ، ونعقب عليها ، ونضيف إليها ، وبالله التوفيق .

ـ قال الخطابى : معنى قوله (لاتغضب) اجتنب أسباب الغضب ، ولا تتعرض لما يجلبه ، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهى عنه ، لأنه أمر طبيعى لايزول من الجبلة .

ـ وقال غيره : ما كان من قبيل الطبع الحيوانى لا يمكن دفعه ، فلا يدخل فى النهى ، لأنه من تكليف المحال ، وما كان من قبيل ما يكتسب بالرياضة فهو المراد .

ـ وقيل : معناه لاتتكبر ، لأن أعظم ما ينشأ عنه الغضب الكبر لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده ، فيحمله الكبر على الغضب ، فالذى يتواضع حتى يذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب .

ـ وقيل . معناه لاتفعل ما يأمرك به الغضب .

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) فقد بين النبى ﷺ أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو .

ـ وقال بعضهم . لعل السائل كان غضوباً ، وكان النبي ﷺ يأمر كل أحد بما هو أولى به ، فلهذا اقتصر فى وصيته له على ترك الغضب .

وقال ابن التين : جمع ﷺ فى قوله (لاتغضب) خير الدنيا والآخرة ، لأن الغضب يئول إلى التقاطع ومنع الرفق ، وربما آل إلى أن يؤذى المغضوب عليه ، فينتقص ذلك من الدين .

وقال البيضاوى . لعله لما رأى أن جميع المفاسد التى تعرض للإنسان إنما هى من شهوته وغضبه ، وكانت شهوة السائل مكسورة ، فلما سأل عما يحترز به من القبائح نهاه عن الغضب الذى هو أعظم ضرراً من غيره ، وأنه إذا ملك نفسه عند حصوله كان قد قهر أقوى أعدائه .

ويحتمل أن يكون من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى ، لأن أعدى عدو الشخص شيطانه ونفسه ، والغضب إنما ينشأ عنهما ، فمن جاهدهما حتى يغلبهما مع مافى ذلك من شدة المعالجة كان لقهر نفسه عن الشهوة أيضاً أقوى .

وقال ابن حبان بعد أن أخرجه : أراد : لاتعمل بعد الغضب شيئاً مما نهيت عنه ، لأنه نهاه عن شىء جبل عليه ، ولا حيلة له فى دفعه .

وقال بعض العلماء . خلق الله الغضب من النار ، وجعله غريزة فى الإنسان ، فهما قصد أحد توزع فى غرض ما اشتعلت نار الغضب ، وثارت حتى يحمر الوجه والعينان من الدم ، لأن البشرة تحكى لون ماوراءها . وهذا إذا غضب على من دونه ، واستشعر القدرة عليه ، وإن كان من فوقه تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، فيصفر اللون حزناً ، وإن كان على النظير تردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر .

ويترتب على الغضب تغير الظاهر والباطن ، كتغير اللون ، والرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال من غير ترتيب ، واستحالة الخلقة ، حتى

لو رأى الغضبان نفسه فى حال غضبه لسكن غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته . هذا كله فى تغير الظاهر .

أما تغير الباطن فقبحه أشد من الظاهر ، لأنه يولد الحقد فى القلب ، والحسد ، وإضمار السوء على اختلاف أنواعه ، بل أول شىء يقبح منه باطنه ، وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه ، وهذا كله أثره فى الجسد . وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذى يستحيى منه العاقل ، ويندم قائله عند سكون الغضب .

ويظهر أثر الغضب أيضا فى الفعل بالضرب أو القتل ، وإن فات ذلك جرب المغضوب عليه رجع إلى نفسه ، فيمزق ثوب نفسه ، ويلطم خده ، وربما سقط صريعا ، وربما أغمى عليه ، وربما كسر الآنية ، وضرب من ليس له فى ذلك جريرة .

ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ (لا تغضب) من الحكمة ، واستجلاب المصلحة ودرء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه ، والوقوف على نهايته .

وهـذا كله فى الغضب الدنيوى ، لا الغضب الدينى ، فإنه مطلوب ومرغوب ، وقد عقد له البخارى بابا فى كتاب الأدب فقال : باب مايجوز فى الغضب والشدة لأمر الله تعالى ، وقال الله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم) .

وذكر طائفة من الأحاديث منها حديث أبى مسعود رضى الله عنه أنه قال (أتى رجل النبى ﷺ فقال : إنى لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا ، قال : فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضبا فى موعظة منه يومئذ ، قال : فقال : يا أيها الناس ، إن منكم منفرين ، فأيكم ماصلى بالناس فليتجوز ، فإن فيهم المريض ، والكبير ، وذا الحاجة) .

ومما يعين على ترك الغضب أن يستحضر العبد ماجاء فى كظم الغيظ من الفضل فقد امتدح الله من هذه صفته ، وأشار إلى أن هذه الفضيلة تسلك صاحبها فى عداد المحسنين قال سبحانه (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين) (آل عمران : ١٣٣ - ١٣٤) .

وقال ﷺ (...مامن جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظمها عبد لله إلاملأ الله جوفه إيمانا) رواه أحمد من حديث ابن عباس . قال ابن كثير : انفرد به ، وإسناده حسن ليس فيه مجروح ، ومتنه حسن .

وقد ذكر ابن كثير طائفة من الأحاديث عمن خرجها من المصنفين ، فى فضل كظم الغيظ ، فأخرج عبد الرازق من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال (من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمنا وإيمانا) .

والأحاديث فى هذا كثيرة فى السنن وغيرها (راجع ابن كثير ٤٠٦/١) .

ومما يعين على دفع الغضب أن يتفكر العبد فى عاقبة الغضب، وما يجره من بلايا وكوارث فى الدنيا والآخرة، فكم من إنسان جره غضبه إلى أمور لا يستطاع تلافيها ، وأوقعه فى مضايق لا يمكن تفاديها ، فيندم ، ولات ساعة مندم .

- ومن ذلك أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كما جاء فى حديث سليمان بن صرد رضى الله عنه أنه قال (استب رجلان عند النبى ﷺ فغضب أحدهما فاشتد غضبه ، حتى انتفخ وجهه وتغير ، فقال النبى ﷺ : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذى يجد فانطلق إليه الرجل فأخبره

بقول النبي ﷺ وقال : أتعوذ بالله من الشيطان فقال : أترى بى بأس ؟ أمجنون أنا ؟ اذهب)(١) .

ومن ذلك أن يتوضأ ، للحديث الذى رواه أبو داود عن أبى وائل القاص ، أنه قال (دخلنا على عروة بن محمد السعدى ، فكلمه رجل فأغضبه، فقام فتوضأ ، فقال : حدثنى أبى عن جدى عطية رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ . وعطية : هو ابن سعد السعدى ، وقد كانت له صحبة .

وقال الطوفى: أقوى الأشياء فى دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقى، وهو أنه لا فاعل إلا الله ، وكل فاعل غيره فهو آلة له فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن الله لو شاء لم يتمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه ، لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه جل وعلا ، وهو خلاف العبودية .

وعقب عليه ابن حجر بقوله (وبهذا يظهر السر فى أمره ﷺ الذى غضب بأن يستعيذ من الشيطان ، لأنه إذا توجه إلى الله فى تلك الحالة بالاستعاذة من الشيطان أمكنه استحضار ما ذكر ؛ وإذا استمر الشيطان متلبسا متمكنا من الوسوسة لم يمكنه استحضار شىء من ذلك . انتهى .

---

(١) رواه الشيخان ، وهذا لفظ البخارى فى الأدب — باب ماينهى من السباب واللعن . وهذه الكلمة التى تذهب نزغ الشيطان هى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، كما بينت ذلك سائر روايات الحديث .

٢٤ – النَّهْيُ عَنِ السِّبَاب

عن سليمانَ بن صُرَد رضى اللهُ عنه قال : اسْتَبَّ رَجُلَانِ عند النبيّ ﷺ ونحن عندَه جلوسٌ ، وأحدُهما يسبُّ صَاحِبَه مُغْضَبًا قد احمرّ وجهُه ، فقال النبيُّ ﷺ : إنِّى لأَعلمُ كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يَجِدُ ، لو قال أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم ، فقالوا للرجلِ : ألا تسمعُ ما يقولُ النبيُّ ﷺ ؟ قال : إنى لستُ بمجنونٍ) متفق عليه .

أخرجه البخارى فى الأدب — باب الحذر من الغضب .

وباب ما ينهى من السباب واللعن .

كما أخرجه فى بدء الخلق — باب صفة إبليس وجنوده .

وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب .

الشرح والبيان

قول سليمان بن صرد (استب رجلان) .

السب : هو الشتم ، وهو نسبة الإنسان إلى العيب ، والسباب مفاعلة منه فهو المشاتمة . واستب رجلان : أى تشاتما وتقاولا ، كل منهما يشتم الآخر .

وقد نهى النبى ﷺ عن سب المسلم ، وتنقيصه ، والطعن عليه فى نفسه ، أو أهله ، أو عرضه ، وبين أنه فسوق عن الدين القويم ، وخروج على الخلق الكريم .

قال ﷺ (سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر) متفق عليه .

وفي صحيح ابن حبان من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه (المستبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان).

وهناك ألوان من السباب والتنقيص أكد الشارع الحكيم النهي عنها، وبالغ في التحذير منها، فمن ذلك رمي المسلم أخاه بالفسق أو الكفر ونحوهما من المروق والضلال، قال ﷺ (لا يرمي رجل رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه مالم يكن صاحبه كذلك) متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (المستبان ما قالا فعلى البادي منهما حتى يتعدى المظلوم) رواه مسلم.

وقد يجر السب إلى ذنوب عظام، وخطوب عظام.

فمن الأول ما تفرد به البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه؟ قالوا: يارسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه).

أما جر السباب إلى الشرور الكبيرة، والخطوب العظيمة فإنه أوضح من أن ينبه إليه، أو يستدل عليه، فكم من عدوات زرعها السباب، وكم من معارك أوقد نارها، وأجج أوارها، وكم من مضاجع أقضها، وكم من مدامع أفاضها، ورب كلمة حمقاء أفلتت من فم متسرع كان لها أثر القنبلة في القضاء على ما بين قوم أو بلد من هدوء وسكينة، وأمان وطمأنينة.

ورحم الله الشاعر الحكيم الذي قال:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ماجرح اللسان

أما هذان الرجلان اللذان صدر منهما السباب في حضرته ﷺ، وعلى مشهد من صحابته الكرام رضي الله عنهم فقد أغفل الرواة ذكرهما.

ويبدو أن ذلك قد حصل عن قصد ، بغية الستر عليهما ، والتعفية على أثرهما .

قوله (وأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه) .

وفى رواية (حتى انتفخ وجهه) وفى أخرى (فاحمر وجهه ، وانتفخت أوداجه) .

وفى حديث معاذ بن جبل عند الإمام أحمد وأصحاب السنن (حتى إنه ليخيل إلى أن أنفه ليتمزع من الغضب) . وهذه الروايات ليس بينها — بحمد الله — اختلاف ، بل إن بعضها يكمل بعضا ، ذلك أن المرء إذا تملكه الغضب ، واستبد به حصل له ذلك كله .

(فقال النبى ﷺ : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

فى رواية أخرى (لو قال : أعوذ بالله من الشيطان) دون ذكر الرجيم ، وفى حديث معاذ (اللهم أعوذ بك من الشيطان الرجيم) .

والرواية التى معنا أرجح الروايات عقلا ونقلا ، لموافقتها للمشهور فى الاستعاذة ، ولثبوتها فى الصحيح .

على أنه من حيث العمل نقول: إن من ذكر به فى حال غضبه ، واستعاذ به صادقا خالصا مخلصا بأى لفظ كان فإن الله يكرمه ، ويعيد إليه صوابه ويسبغ عليه رحمته ، لكن استعمال اللفظ الوارد عن صاحب الشريعة ﷺ أفضل وأكمل ، فقد يكون فيه سر لا نفهمه ، وأمر لا ندركه ولا نعلمه . وهذا أمر ينبغى علينا — معشر المسلمين — أن نستحضره فى أذهاننا ، وأن ننبه إخواننا إليه ، وندلهم عليه .

— وقد يسأل سائل : لماذا سلك النبى ﷺ فى نصح الرجل هذا المسلك، ولم يواجهه بالخطاب ، ويحضه على الاستعاذة بنفسه ؟

والجواب : أن الرجل كان قد بلغ به الغضب مبلغا أخرجه عن جادة الصواب ، ونأى به عن التفكير السليم ، والتصرف المستقيم ، فخشى النبى ﷺ عليه أن يفتن فى دينه ، أو يحبط عمله لو واجهه بالنصيحة بنفسه ، ووجهها الرجل على النبى ﷺ ، وقد كان ﷺ حليما كريما ، وبالمؤمنين رءوفا رحيما .

— بقى أن نتساءل: لماذا كانت الاستعاذة سببا فى ذهاب الغضب وعودة المرء إلى صوابه ؟

والجواب : أن الغضب من الشيطان ، فإذا استعاذ العبد بربه الذى بيده ناصية كل شىء صرف سبحانه عنه الشيطان ، وألهمه رشده — قال تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) (الأعراف : ٢٠٠) .

وقال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) (فصلت : ٣٦) .

وقال (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) (الأعراف : ٢٠١) .

وفى قراءة : طيف ، قال أهل التأويل هو الغضب ، أو هو من الجن وهو الصرع ، أو هو الهم بالذنب ، والأولى حمله على العموم ، فإن كل ذلك من الشيطان ، فإذا ذكر العبد ربه عند الغضب ، أو عند الهم بالذنب ألهمه مولاه السداد ، ورده إلى الصواب والرشاد .

قوله (فقالوا الرجل : ألا تسمع ما يقول النبى ﷺ ؟)

فى رواية مسلم (فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبى ﷺ)

وفى رواية أبى داود أن الذى قال له ذلك رجل منهم ، وهو معاذ بن جبل رضى الله عنه ، ولفظها (فجعل معاذ يأمره) فأبى وضحك ، وجعل يزداد غضبا) وحاصل كلام الرجل أنه أمره بالاستعاذة استجابة لنصيحة النبى ﷺ .

(قال: إنى لست بمجنون) وفى رواية أخرى فى الصحيح (أترى بى بأس؟ أمجنون أنا ؟ اذهب) وفى مسلم (أمجنونا ترانى) ؟

وقول الرجل فى دفع نصيحة النبى ﷺ التى بلغها الرجل له إنى لست بمجنون ، اذهب ، أو أتظن بى بأسا ، إلى آخر هذه الألفاظ جعل أهل العلم يذهبون فى أمره مذاهب شتى ، لأنه يبعد كل البعد بالمؤمن فى حاله المعتاد أن يقف من نبيه ﷺ هذا الموقف .

قال ابن حجر : وأخلق بهذا المأمور أن يكون كافرا ، أو منافقا ، أو كان قد غلب عليه الغضب حتى أخرجه عن حد الاعتدال ، بحيث زجر الناصح الذى دله على ما يزيل عنه ما كان به من وهج الغضب بهذا الجواب السيىء .

وقيل : إنه كان من جفاة الأعراب ، وظن أنه لا يستعيذ من الشيطان إلا من به جنون ولم يعلم أن الغضب نوع من شر الشيطان .

ويعقب بعض أهل العلم على موقف هذا الغاضب من هذه النصيحة فيقول: ولست أرى برهانا أدل على مبلغ عدوان الغضب على العقل ، وسيطرته على نوازع الخير فى النفس من هذه الحادثة :

ذلك أن وقوف مسلم من نبيه موقفا كهذا ، يأبى فيه الاستجابة إليه ، ويتعالى أعلى توجيهه إياه إلى ما يصلحه ، ليس من الظواهر العادية ، لاسيما فى ذلك الوقت الذى كان فيه المسلمون أحرص على الإشارة من الرسول .

فضلا عن العبارة ، ومن المستبعد أن يقف مسلم هذا الموقف وهو في وضع طبيعي ، ومن ثم فلا تفسير لهذه الظاهرة إلا أن الغضب شل تفكير الرجل ، وعطل مداركه ، وصيره في حالة لا يعي فيها تماما ما يقول ، ولا ما يفعل)(١) .

فهو بهذا البيان يميل إلى أن الرجل مسلم ، لكن غلب عليه الغضب ، وهو ما أرجحه ، لأنه هو الذي تنفعه الاستعاذة .

ما يؤخذ من الحديث .

وفي الحديث تحذير شديد من السباب والمهاترة ، وبيان ما يترتب عليهما من الغضب بعواقبه الوخيمة .

وفيه أن الشر يتولد بعضه من بعض .

وأن الاستعاذة سبب لدفع الغضب ، ونزغ الشيطان .

وأن الشيء قد ينسب للجماعة إذا باشره واحد منها ، وكانت هذه الجماعة به راضية ، وعليه موافقة .

وفيه أن الغفلة عن الله ، والذهول عن ذكره يوقع الغافل في أسر الشيطان ، ويفضي به إلى الخذلان والحرمان .

وفيه حكمة النبي ﷺ ، وحسن أدبه ، ولطف تأديبه لمن معه ، ورأفته ورحمته بالمؤمنين صلوات الله وسلامه عليه ، وفيه غير ذلك لمن تأمل .

والله أعلم ، وهو أجل وأحكم ، نسأله سبحانه أن يلهمنا رشدنا ، ويقينا شر نفوسنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

---

(١) (إتحاف المؤمنين بتفسير فاتحة الكتاب وآية الكرسي وسورة يس) لأستاذنا الجليل أبي الطيب : محمد سليمان سليمان طيب الله ثراه ، ونفع بعلمه وهداه .

٢٥ — فضلُ من يملكُ نفسَه عندَ الغضب

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضى الله عنه أنه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : ما تعدون الرَّقُوبَ فيكم ؟ قال : قلنا : الذى لا يُولَدُ له ، قال : ليس ذاك بالرَّقوب ، ولكنه الذى لم يُقَدِّمْ من ولده شيئا .

قال : فما تَعُدُّون الصُّرَعَةَ فيكم ؟ قال : قلنا : الذى لا تَصْرَعُه الرجالُ ، قال : ليس بذلك ، ولكنه الذى يملكُ نفسَه عندَ الغضب(١) .

الشرح والبيان

قال ابن الأثير : الرقوب فى اللغة الرجل والمرأة إذا لم يعش لهما ولد ، لأنه يرقب موته ، ويرصده خوفا عليه ، فنقله النبى ﷺ إلى الذى لم يقدم من الولد شيئا : أى يموت قبله ، تعريفا لأن الأجر والثواب لمن قدم شيئا من الولد ، وأن الاعتداد به أعظم ، والنفع به أكثر ، وأن فقدم وإن كان فى الدنيا عظيما ، فإن فقد الأجر والثواب على الصبر والتسليم للقضاء فى الآخرة أعظم ، وأن المسلم ولده فى الحقيقة من قدمه واحتسبه ، ومن لم يرزق ذلك فهو كالذى لا ولد له . ولم يقله ﷺ إبطالا لتفسيره اللغوى ، إنما هو كقوله (المحروب من حرب دينه) ليس على أن من أخذ ماله غير محروب . أ هـ والمحروب فى اللغة من سلب ماله .

وقال أبو عبيد : معنى الرقوب فى كلامهم إنما هو على فقد الأولاد ، فكان مذهبه عندهم على مصائب الدنيا ، فجعلها رسول الله ﷺ على فقدهم فى الآخرة ، وليس هذا بخلاف ذلك فى المعنى ، ولكنه تحويل الموضع إلى غيره ، نحو حديثه (إن المحروب من حرب دينه) وليس هذا أن يكون من سلب ماله ليس بمحروب . انتهى . [لسان العرب ١/٤١١] .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب .

وقال الإمام النووى : معنى الحديث أنكم تعتقدون أن الرقوب المحزون هو المصاب بموت أولاده ، وليس هو كذلك شرعا ، بل هو من لم يمت أحـــد من أولاده فى حياته فيحتسبه : يكتب له به أواب مصيبته به ، وثواب صبره عليه ، ويكون له فرطا وسلفا .

[صحيح مسلم بشرح النووى ١٩/١٦٢] .

وأما الصرعة - بفتح الراء بوزن همزة - فهو فى اللغة من يصارع الناس فيصرعهم ، فهو القوى الشديد ، وقد نقله النبى ﷺ إلى هذا المعنى الذى تضمنه الحديث وهو أنه الذى يملك نفسه عند الغضب ، فلا يحمله غضبه على السب والشتم ، والقذف واللعن ، والضرب والإيذاء ، والتطاول على الناس ، وغمط حقوقهم ، بل يقف على جادة الصواب ، وصراط الاعتدال ، يعلم أن ربه عليه رقيب ، وعلى عمله حسيب ، بل ربما ارتقى فى معارج الكمال ، فعفا عمن أساء إليه ، وأحسن إلى من تطاول عليه ، وهذه منازل لا يكرم بها إلا الصالحون ، ولا يلقاها إلا الصابرون ، قال تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (فصلت : ٣٤ ، ٣٥)

ما يؤخذ من الحديث :

قال الإمام النووى : وفى الحديث فضل موت الأولاد ، والصبر عليهم ويتضمن الدلالة لمذهب من يقـــول بتفضيل التزوج ، وهو مذهب أبى حنيفة وبعض أصحابنا (أى الشافعية) .

وفيه فضيلة كظم الغيظ والأحاديث فيها مشهورة ، وفضيلة إمساك النفس عند الغضب عن الانتصار والمخاصمة والمنازعة .

وفيه بيان لكيفية تربية النبى ﷺ لأصحابه وتوجيههم إلى الفضائل التى تدوم آثارها ، وتبقى وتزدهر ثمراتها وفيه غير ذلك لمن تأمل ، والله أعلى وأجل ، بفضله التوفيق ، والهداية لأقوم طريق .

٢٦ – التَّحْذِيرُ مِنْ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالرِّيَبِ

عن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالت: استأذن رجلٌ على رسولِ اللهِ ﷺ فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرةِ أو ابنُ العشيرةِ، فلما دخل ألانَ له القولَ، قُلْتُ: يارسولَ اللهِ، قلتَ الذى قلتَ، ثم ألنت له الكلامَ؟ قال: أى عائشة: «متى عهدتني فاحشا؟ إن من شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء شره» متفق عليه.

وقد رواه البخارى فى كتاب الأدب – باب لم يكن النبى ﷺ فاحشا ولا متفحشاً، وباب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب.

الشرح والبيان

اختلف أهل الحديث فى هذا الرجل الذى استأذن على النبى ﷺ فذهب بعضهم إلى أنه عيينة بن حصن الفزارى، وذهب آخرون الى أنه مخرمة بن نوفل، ومنهم من جزم بما رآه وذهب اليه، ومنهم من أورده احتمالا. ولكل وجهة ودليل.

ولقد سبق أن ذكرت من قبل أن الطريق الى معرفة المبهمات وروده التصريح بهم فى روايات أوأحاديث أخرى، وأن الوصول الى معرفتهم قد يكون يقينيا، وقد يكون فى دائرة الاحتمال.

وبخصوص هذا الحديث فقد ساق الحافظ ابن حجر فى الفتح الروايات والأحاديث التى يستدل بها كل لما ذهب اليه، وأطنب فى ذلك وأطال بما لا يحتمله هذا الكتاب، فمن أراد أن يستزيد فليرجع الى الفتح – [كتاب الأدب – باب لم يكن النبى ﷺ فاحشا ولا متفحشا ١٣/٦٢].

قوله (بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة)

قال فى القاموس : عشيره الرجل : بنو أبيه الأدنون ، أو قبيلته .

والمعنى : بئس هذا الرجل من عشيرته ، أو من قبيلته .

قولها (فلما دخل ألان له القول) وفى الرواية الأخرى (فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وسلم فى وجهه ، وانبسط إليه)

ومعنى (تطلق) أى قابله وجالسه بوجه طلق لا عبوس فيه .

ومعنى (انبسط إليه) أى بقوله وحاله : من إلانة القول ، وطلاقة الوجه ، وترك العبوس والتقطيب .

قولها (قلت : يارسول الله ، قلت الذى قلت ثم ألنت له الكلام)

يدل هذا الكلام على أن عائشة رضى الله عنها كانت تظن أن قضية فهم النبي ﷺ للرجل أن يعامله بجفاء ، وأن يعبس فى وجهه ، وأن يغلظ له فى القول ، ومن هنا كان سؤالها .

ولكن النبي ﷺ بين لها أن على المرء أن يستمسك بالخلق الكريم والقول اللين ، ويبتعد عن الجفاء والإغلاظ والفحش ، وأنه صلى الله عليه لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ثم وضع مبدأ عاما فى الأمر وهو أن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس وقاطعوه اتقاء لشره .

وفى هذا الحديث ألوان من العلوم والآداب .

فهو يدل على أن كل من اطلع فى حال شخص على شيء ، وخشى أن يغتر غيره بجميل ظاهره فيقع فى محذور ما فعليه أن يطلعه على مايعرفه من حاله حتى لا يقع فى حبائله ، ويقصد بذلك نصيحته .

قال القرطبي : فى الحديث جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور فى الحكم ، والدعاء إلى البدعة مع جواز صداراتهم اتقاء شرهم ، ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة فى دين الله، ثم قال : والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو لصلاحهما معا وهى مباحة ، وربما استحبت ، وأما المداهنة فترك الدين لصلاح الدنيا ، والنبى ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته ، والرفق فى مكالمته ، ومع ذلك فلم يمدحه بقول ، فلم يناقض قوله فيه فعله ؛ فان قوله فيه حق ، وفعله معه حسن عشرة .

والغيبة : هى ذكر المرء أخاه بما يكره — وهى محرمة ، وجمهور أهل العلم على أنها من الكبائر ، ولكنها إذا تعينت طريقا لغرض شرعى لا يمكن الوصول إليه إلا بها فانها تصبح مباحة ، بل ربما صارت واجبة .

لكن أهل العلم اختلفوا فى هذا النوع الذى يجب فيه ذكر المرء بما يكره للحاجة : هل يسمى غيبة أولا ؟ ظاهر صنيع البخارى رحمه الله تعالى أنه يسمى غيبة ألا تراه بوب لهذا الحديث بقوله (باب مايجوز من اغتياب أهل الفساد والريب)

ومنهم من قال : صورته صورة الغيبة، فهو غيبة باعتبار المعنى اللغوى وليس غيبة شرعا .

ومنهم من قال : إن كل ذلك ليس من الغيبة فى شىء .

وأيا ما كان الأمر فاذا دامت معالم المحظور والمباح من ذلك واضحة فان الإطلاقات والأسماء أمرها قريب هين .

قال الامام النووى رحمه الله : اعلم أن الغيبة تباح لغرض شرعى صحيح لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهو ستة :

(الأول) التظلم : فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان أو القاضي ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه ، فيقـــول : ظلمني فلان أو فعل بي كذا .

(الثاني) الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول: لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر : فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك ، ويكون مقصوده تغيير المنكر ، فإن لم يقصده كان حراما .

(الثالث) الاستفتاء : فيقول للمفتي : ظلمني أبي ، أو أخي ، أو فلان بكذا ، فهل له ذلك ، وما طريقي في الخلاص منه ، وتحصيل حقي ، ورفع الظلم ، ونحو ذلك ، فهذا جائز للحاجة . ولكن الأحوط والأفضل أن يقول : ما تقول في رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ، ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره في حديث هند إن شاء الله تعالى .

(الرابع تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم : وذلك من وجوه :

ـ منها جرح المجروحين من الرواة والشهود ، وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة .

ـ ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان ، أو مشاركته وإيداعه ، أو معاملته ، أو غير ذلك ، أو مجاورته ، ويجب على المشاور (بفتح الواو ـ وهو المستشار) أن لا يخفي حاله ، بل يذكر المساوىء التي فيه بنيـــة النصيحة .

ـ ومنها إذا رأى متفقها يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم ، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك فعليه نصيحته ببيان حاله بشرط أن يقصد النصيحة ، وهذا مما يغلط فيه ، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد ، ويلبس الشيطان عليه ذلك ويخيل إليه أنه نصيحة فليفطن لذلك .

— ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها ، إما بأن لا يكون صالحا لها ، وإما بأن يكون فاسقا أو مغفلا ونحو ذلك ، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ، ويولى من يصلح ، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به ، وأن يسعى فى أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به .

(الخامس) أن يكون مجاهرا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر ، ومصادرة الناس ، وأخذ المكس ، وجباية الأموال ظلما ، وتولى الأمور الباطلة ، فيجوز ذكره بما يجاهر به ، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه .

(السادس) التعريف : إذا كان الإنسان معروفا بلقب كالأعمش ، والأعرج ، والأصم ، والأعمى ، والأحول جاز تعريفهم بذلك ، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص ، ولو كان تعريفه بغير ذلك كان أولى .

ثم قال : فهـــذه ستة أسباب ذكرها العلماء ، وأكثرها مجمع عليه ، ودلائلها من الأحاديث الصحيحة المشهورة ، ومن ذلك :

— حديث عائشة الذى نحن بصدد شرحه والكلام عنه فقد قال فيه النبى ﷺ (بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة) وقد أشرنا إلى احتجاج البخارى به على جواز اغتياب أهل الفساد والريب بدليل ترجمته وتبويبه .

— وعن فاطمة بنت قيس رضى الله عنها ، قالت : أتيت النبى ﷺ فقلت : إن أبا الجهم ومعاوية خطباني ، فقال رسول الله ﷺ :

أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه ، متفق عليه ، وفى رواية لمسلم (وأما أبو الجهم فضراب للنساء ، وهو تفسير لرواية (لا يضع العصا عن عاتقه) وقيل : معناه كثير الأسفار .

— وعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر أصاب الناس فيه شدة ، فقال عبدالله بن أبى : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبدالله ابن أبى فاجتهد يمينه ما فعل ، فقالوا : كذب زيد رسول الله ﷺ ، فوقع فى نفسى مما قالوه شدة ، حتى أنزل الله تصديق (إذا جاءك المنافقون) ثم دعاهم النبى ﷺ ليستغفر لهم فلووا رءوسهم) متفق عليه .

— وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قالت هند امرأة أبى سفيان النبى ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ؟ قال : خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف) متفق عليه .

وعلى الله قصد السبيل ، هو حسبنا ونعم الوكيل .

٢٧ - اللهُ فى عَوْنِ العبدِ مادام العبدُ فى عَوْنِ أخيه

عن أبى هريرةَ رضى اللهُ عنه أنه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنه كربةً من كُرَبِ يَوْمِ القيامة ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عليه فى الدنيا والآخرةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مسلماً سترَه اللهُ فى الدنيا والآخرةِ ، واللهُ فى عونِ العبدِ ما كان العبدُ فى عونِ أخيه ، وَمَنْ سَلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سَهَّلَ اللهُ له به طريقاً إلى الجنةِ ، وما اجتمع قومٌ فى بيتٍ من بيوتِ اللهِ يتلون كِتَابَ اللهِ ، وَيَتَدَارَسُونه بينهم إلا نزلتْ عليهم السكينةُ ، وغشيتهم الرحمةُ ، وحَفَّتْهُمُ الملائكةُ ، وذكرهم اللهُ فِيمَنْ عِنْدَه ، وَمَنْ بَطَّأَ به عملُه لم يُسْرِعْ به نسبُه » رواه مسلم .

الشرح والبيان

أخرج الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى هذا الحديث فى (كتاب الذكر والدعاء والتـــوبة والاستغفار) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وترجم له الإمام النووى بقوله : (باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر) .

وأخرج نحوه فى كتاب البر والصلة والآداب من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى باب تحريم الظلم ، وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام المسلم أخو المسلم : لايظلمه ، ولا يسلمه . .) .

قال الإمام النووى : وهو حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب . وهذا حق لاريب فيه ، فقد تضمن الحديث من الحقائق والنصائح والفضائل والآداب والقواعد مايقر الأعين ، ويشرح الصدور ، ففيه فضل تفريج كروب المؤمنين ، وقضاء حوائجهم ، والستر عليهم ، وإعانتهم فى مصالحهم ، وأن الله سبحانه هو الذى يجزيهم الجزاء الأوفى ،

فى الآخرة والأولى ، وفيه فضل السعى فى طلب العلم النافع ، وفضل الاجتماع على الذكر وتلاوة القرآن . وفيه التحذير من التقصير اعتماداً على الجاه والنسب .

وما من عبارة من عبارات الحديث إلا وهى قاعدة عظيمة من قواعد الدين وهدية كريمة من رب العالمين ، وكل واحدة منها وإن بدت مستقلة فإن مجموعها يشكل عقداً فريداً ، ودستوراً مجيداً للتراحم والتعاطف والتكافل بين المسلمين بما يعود عليهم بالخير والصلاح فى دنياهم وآخرتهم . ولنبدأ بشرح الحديث على الترتيب الذى جاء عليه فنقول وبالله التوفيق :

قوله ﷺ (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة) .

نفس : فرج ، وتنفيس الكربة : تفريجها وإزالتها ، وفى حديث ابن عمر (ومن فرج) بدل نفس .

والكربة من الكرب : وهو الحزن والغم الذى يأخذ بالنفس .

وكرب الدنيا : شدائدها التى تعرض للمرء وتكربه فى نفسه أو أهله أو ماله .

وكرب الآخرة : شدائدها وأهوالها يوم القيامة .

ومعنى العبارة : من فرج عن مؤمن شدة من شدائد الدنيا أياً كان نوعها سواء تعلقت بنفسه ، أو أهله ، أو ماله ، أو عرضه ، أو حريته ، أو معيشته فإن الله يفرج عنه بذلك شدة من شدائد يوم القيامة .

وتفريج الله كربة عبده يوم القيامة يحتمل أن يكون بعد أن تعرض له فى الموقف ، ويعانى شدتها ، ويحتمل أن يصرفها سبحانه قبل أن تقع .

وهو ما أميل إليه ، ودليله قول الصادق المصدوق ﷺ (من نفس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة) رواه مسلم وغيره من حديث أبى قتادة رضى الله عنه .

وسواء كان تفريج المسلم لكربة أخيه بماله أو جاهه أو مساعدته أو رأيه أو إشارته ونصيحته فإن الله يفرج عنه بذلك فى الآخرة .

قال الإمام النووى رحمه الله : ويدخل فى كشف الكربة من أزالها بماله ، أو جاهه ، أو مساعدته ، والظاهر أنه يدخل فيه من أزالها برأيه ودلالته . انتهى .

وقد يقال : إن ظاهر هذا الحديث يدل على أن الحسنة التى يفعلها العبد لا يجزيه الله بها إلا مثلها ، مع أن الثابت الذى تظاهرت عليه نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة أن أقل التضعيف ما أشارت إليه الآية الكريمة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (الأنعام : ١٦٠) وهناك ما أوسع وأكثر ، وهو ما يشير إليه قوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) (البقرة : ٢٦١) .

— وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب — ولا يقبل الله إلا الطيب — فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » متفق عليه .

والجواب : أن كربة واحدة من كرب الآخرة تعادل أعداداً كثيرة من كرب الدنيا ، فالتضعيف إنما هو فى الكيفية لا فى العدد والكمية .

قوله ﷺ (ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة) .

المعسر : هو من قل ماله ، وركبه من الدين مايئوده ويثقله ، وهو نقيض الموسر ، أو هو بمعنى افتقر .

قال صاحب اللسان : المعسر : نقيض الموسر ، وأعسر فهو معسر صار ذا عسرة وقلة ذات يد ، وقيل : افتقر ، والعسرة قلة ذات اليد .

وقد أمر الله سبحانه فى كتابه الكريم بالصبر على المدين وإنظاره إذا كان ذا عسرة ، ورغب فى وضع الدين أو وضع بعضه عنه ، والصدقة به عليه ، ووعد على ذلك الأجر العظيم ، قال تعالى : (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) (البقرة : ٢٨٠)

قال ابن كثير عند تفسيره للآية : يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لايجد وفاء فقال (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضى، وإما أن تربى ثم يندب الى الوضع عنه ويعد على ذلك الثواب الجزيل فقال (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) أى وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين .

والتيسير على المعسر هو الصبر عليه وإنظاره حتى يتيسر أمره . وأكمل منه وأفضل إبراؤه إبراء كاملا من دينه .

وأما الجزاء الذى تضمنه هذا الحديث فهو تيسير الله سبحانه على من ييسر على أخيه المعسر فى الدنيا والآخرة ، وهذا التيسير عام يتناول أمور الرزق والعمل فى الدنيا والآخرة ، وكل شئون المسلم فى آخرته .

هذا وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى فضل إنظار المعسر ، والوضع عنه ، ففصلت ألوانا من الجزاء الذى أجمله هذا الحديث ، وقد أورد الحافظ ابن كثير فى تفسيره جانبا منها :

— أخرج الطبرانى عن أبى أمامة أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ (من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو يضع عنه » .

— وأخرج الإمام أحمد عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ « من نفس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة » رواه مسلم فى صحيحه .

— وأخرج الإمام أحمد عن بريدة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة) قال : ثم سمعته يقول « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة » قلت: سمعتك يارسول الله تقول « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » ثم سمعتك تقول (من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة) فقال « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين ، فإذا حل الدين فله بكل يوم مثلاه صدقة » .

— ومن ربعى بن حراش ، عن حذيفة قال : أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ماذا عملت فى الدنيا ؟ قال — ولا يكتمون الله حديثاً(١) — قال : يارب آتيتنى مالك فكنت أبايع الناس، وكان من خلقى الجواز ، فكنت أتيسر على الموسر ، وأنظر المعسر ، فقال الله : أنا أحق بذلك ، تجاوزوا عن عبدى . فقال عقبة بن عامر الجهنى وأبو مسعود الأنصارى : هكذا سمعناه من (فى) رسول الله ﷺ) أخرجه مسلم بهذا اللفظ فى كتاب البيوع باب فضل إنظار المعسر .

والأحاديث فى هذا كثيرة فى الصحيحين وغيرهما .

---

(١) جملة معترضة من كلام حذيفة ، وليست من أصل الحديث ، والجواز هو التجاوز والتخفيف وحسن الاقتضاء ، وقد فسره مابعده .

وقوله ﷺ (ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة)

المراد بالمسلم هنا هو المسلم المستور الذى لايجاهر بالشر ، ولايستعلن بالفسوق ، والذى ظاهره الخير والتصون — وليس المراد به الفاسق المجاهر بآثامه ، ثم هناك فرق بين معصية مضت وانقضت ، وبين معصية رآه متلبسا بها . وقد فصل الإمام النووى رحمه الله هذا الأمر ووضع النقاط فيه فوق الحروف. قال رحمه الله : وأما الستر المندوب إليه فالمراد الستر على ذوى الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفا بالأذى والفساد ..... فأما المعروف بذلك فيستحب أن لايستر عليه ، بل ترفع قضيته إلى ولى الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة ، لأن الستر على هذا يطمعه فى الإيذاء والفساد ، وانتهاك الحرمات ، وجسارة غيره على مثل فعله ، هذا كله فى معصية وقعت وانقضت .

أما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها عليه ، ومنعه منها على من قدر على ذلك ، ولايحل تأخيرها ، فإن عجز لزمه رفعها إلى ولى الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة .

وأما جرح الشهود والرواة ، والأمناء على الصدقات والأوقاف والأيتام ونحوهم ، فيجب جرحهم عند الحاجة ، ولايحل الستر عليهم إذا رأى منهم ما يقدح فى أهليتهم ، وليس هذا من الغيبة المحرمة ، بل من النصيحة الواجبة وهذا مجمع عليه .

قال العلماء فى القسم الأول الذى يستر فيه: هذا الستر مندوب بالإجماع ، فلو رفعه إلى السلطان ونحوه لم يأثم بالإجماع ، لكن هذا خلاف الأولى ، وقد يكون فى بعض صوره ما هو مكروه والله أعلم . انتهى .

وهذا كلام واضح حكيم فالذى يندب الستر عليه هو المسلم المعروف بالستر والصيانة وظاهر أمره الصلاح ، أما الفساق والمجاهرون بالمعاصى فيجب

كشف أمرهم، ورفعهم إلى من يملك كف أذاهم ودفع شرورهم. وهذا فى معصية مضت وانقضت .

وأما المتلبس بالمعصية أو من هو بصدد مباشرتها فيجب الإنكار عليه، ومنعه منها، ولا يحل تأخير ذلك ، فان عجز المسلم عن منعه بنصيحة أو بنفسه لزم رفعه إلى ولى الأمر إن لم يترتب على ذلك مفسدة .

وأما الذين يتولون شيئا من الأمور العامة والخاصة فان ظهر منهم تقصير أو خيانة أو انحراف فلا يحل الستر عليهم، بل يجب كشفهم حتى لا يستمرئوا الخيانة والانحراف ، وحتى لا يقتدى بهم ضعاف النفوس .

وهذا هو هدى الدين الحنيف ، وتوجيهاته الحكيمة ، ولو أن المسلمين عرفوه ، والتزموا به ، لسلم المجتمع من شرور كثيرة ، وأخطار كبيرة ، ولما تفشت فيه تلك الرذائل التى تنخر فى جسمه مثل السرقة والاختلاس ، والخيانة ، والسكوت على المنكر ، وقلة المبالاة بالمال العام والمصالح العامة ، وهى المنكرات التى تفشت من قبل فى بنى إسرائيل ، والتى من أجل اقترافها ، والرضا بها ، والسكوت عنها حل بهم غضب الله سبحانه ولعنته، وسخطه ونقمته ، قال جل وعلا (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون) (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم (والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه) .

فإنه يتناول كل ما يقدمه المؤمن ، ويشمل كل ما سبق الترغيب فيه

والحث عليه من تفريج كرب المؤمن ، والتيسير عليه فى عسرته ، وستره عند زلته . ويزيد عليه ، ويبين أن جميع ما يقدمه المسلم لأخيه ابتغاء مرضاة الله عمل مشكور له بركاته فى حياته ، وأجره وثوابه بعد وفاته .

فالجملة تتضمن أشد الترغيب للمؤمن فى إعانة أخيه المؤمن بأى لون من ألوان الإعانة .

قال ﷺ « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » حديث صحيح رواه الشيخان .

وقد يأخذ العون للمسلمين الطابع العام ، فلا يخص فردا منهم بعينه ، وإنما ينبع من عاطفة الرحمة العامة بهم . فمن صرف عن المسلمين شيئا مما يضرهم ويؤذيهم فقد أعانهم واستوجب بعمله هذا واسع الفضل وجزيل العطاء من ربه الذى يقول (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) الزلزلة : ٧) ويقول (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما) (النساء : ٤٠) .

— عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لقد رأيت رجلا يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر طريق كانت تؤذى المسلمين » رواه مسلم .

وقد سلك النبى صلى الله عليه وسلم فى الحث على إعانة المسلم لأخيه ، وقضاء حوائجه وتفريج كروبه مالا مزيد عليه لمستزيد .

فبدأ كلامه بلفظ الجلالة مبينا أنه سبحانه الذى يتولى مجازاة من يعين أخاه المسلم .

ثم آثر أن يقول «فى عون العبد» بدلا من (يعين العبد) مثلا ، وبينهما فرق واسع يدركه من درس لغة العرب ، وعرف أساليبها وبلاغتها .

ثم اختار أن يعبر بكلمة «العبد» دون غيره ،

ومن شأن العبد أن يحرص على رضا مولاه ، ومما يرضيه سبحانه أن يعين القوى من عباده ضعيفهم ، والقادر العاجز ، والغنى الفقير ، فالخلق جميعا عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله .

ثم وقع التعبير عمن يقدم إليه العون بالأخوة ؛ وهو تذكير للمسلمين بالرابطة الوثيقة التى ربط الإسلام بها بينهم ، والتى توجب العـــون والمساعدة .

ثم أشعر كلامه ﷺ بأن عون الله جل جلاله مستمر ودائم لعبده طالما كان فى حاجات أخيه ساعيا ، وبها مشغولا ، فإن الله يكلفه بأن يذكره ولا ينساه ، ويعينه ويتولاه . يدل على ذلك التعبير بقوله (ما كان العبد) فإنه تعبير يدل على الدوام والاستمرار .

قوله ﷺ (ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) سلك طريقا : دخل فيه .

والالتماس : هو الطلب ، والطريق قد يكون حسيا ، وقـــد يكون معنويا ، وقد يراد به ما يشمل الحسى والمعنوى جميعا — وهو ما أميل إليه ، و (فى) من قوله (يلتمس فيه) قد تكون للظرفية ، وقد تكون صلية .

والعلم هنا : هو العلم الشرعى الذى يعرف به العبد ربه ، وأحكامه من

حلال وحرام ، وأمور المعاش والمعاد . ومعنى (سهل الله له به) أى يسر الله له بسلوك هذا الطريق طريقا إلى جنته ، وذلك بأن يفتح له بابا من المعرفة وصدق اليقين، والعمل الصالح، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والغيرة على دين الله ، والرحمة بعباده ، والحرص على صلاح أمرهم واستقامة حالهم مما يستوجب به جنته ورضوانه .

ولنزد الأمر إيضاحا فنقول : —

إن المراد بالعلم فى هذا الحديث ونحوه هو العلم الشرعى الذى يبتغى به صاحبه مرضاة ربه من حفظ كتاب الله ، ومعرفة تفسيره ، وأحكامه ، وناسخه ومنسوخه ومعرفة سنة رسوله ﷺ وحفظها ، والتفقه فيها ، وما استنبط من ذلك ، واتصل به ، وأعان على معرفته من الفقه ، وأصوله ، واللغة والبيان وغيرها .

فهذه العلوم هى التى تثمر للعبد المعرفة بالله ، والإيمان به ، والوقوف عند حدوده ، ومعرفة مراضيه ومساخطه .

وهى التى يتعرف بها العبد الأحكام الشرعية ، والأوامر والنواهى ، ويتبين بها العباد ما يأتون وما يذرون .

وهى التى توقف الناس على أمور المبدإ والمنتهى ، وتعرفهم من أحوال الآخرة ما يرغبهم فى الخيرات ، ويصرفهم عن الشرور والموبقات .

وهذه العلوم هى التى تثمر لصاحبها الحكمة التى تكفل لصاحبها الخير الكثير بالتوفيق فى الدنيا ، والفوز فى العقبى قال تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب) (البقرة : ٢٦٩)

وقد يقول قائل : لقد قصرت هذا العلم الذى له كل هـــذه الثمرات الشريفة والذى يفتح لصاحبه الطريق إلى رضوان الله وجنته على العلوم الشرعية وما يتصل بها ويدور فى فلكها فما بال العلوم الأخرى التى تتصل بحياة الناس فى دنياهم والتى يتوقف على معرفتها والتفوق فيها تقدم الأمم ورقيها ، وارتفاع شأنها ، وهى العلوم التى اصطلح على تسميتها بالعلوم المدنية مثل علوم الطب ، والهندسة والزراعة ، والكيمياء ، وعلوم طبقات الأرض وغيرها ؟

والجواب عن هذا أنها علوم ضرورية ونافعة ، وأن الإسلام يطلبها ، ويحرص عليها ، ويجعلها من الفروض التى يجب على المسلمين تحصيلها ، والتبريز فيها ، إلا أن افتراضها ليس على كل فرد من المسلمين . بل هى فرض على الجماعة كلها : فرض عليها أن يكون فيها الأطباء والمهندسون ، والزراعيون ، والصناع وغيرهم فى سائر الفروع والتخصصات حتى يعز بهم الدين ، وتقوى بهم كلمة المسلمين .

وقد أوجب أهل العلم على ولى الأمر أن يتفقد أحوال رعيته فى هذا الجانب كما يتفقدها فى غيره ، سواء بنفسه أو بمن ينوب عنه فى كل موقع من مواقع الفكر والعمل ، فيكملوا الناقص ، ويسدوا الخلل .

إلا أنه ينبغى أن يتنبه المسلم أيا كان عمله ، وأيا كانت ثقافته إلى أن العلوم الشرعية هى الأساس ، وما لا يصح الدين — فى العقيدة ، والعبادة ، والمعاملة — إلا بمعرفته فتعلمه واجب ، وعليه قول الصادق الأمين ﷺ (طلب العلم فريضة على كل مسلم)(١) .

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره من طريق فيها مقال ، قال العراقى : قد صحح بعض الأئمة بعض طرقه . وقال المزى : روى من طرق تبلغ رتبة الحسن . انظر كشف الخفا ٢ / ٥٦

فما دام المؤمن قد أخذ من ذلك بنصيب واف كاف شاف يصلح به قلبه ولسانه وجوارحه ، ويصحح به عمله ومعاملته فلا عليه بعد ذلك أن يتعلم ما شاء من العلوم مادامت لا تعارض شيئا من حقائق الدين الثابتة ولا يترتب على دراستها ضلال أو انحراف ، طالما كانت نافعة له ولبلده ولأمته ولدينه — ثم عليه بعد ذلك أن يحذر من غوائلها وشروورها ، والاغترار بها ، والانصراف بها عن علوم الشريعة ، والتعالى بها على عباد الله .

وإذا صلح المرء ، وكان سليم الفطرة ، نقى السريرة انفتح أمامه بهذه العلوم طرق كثيرة إلى معرفة الكون وخالقه ، وأسراره ونواميسه ، فازداد بذلك إيمانا ويقينا .

وإذا فسدت النفس وكان صاحبها معوج الفطرة ، خبيث السريرة زادته هذه العلوم إوبالا وضلالا ، ولم تزده من ربه إلا بعدا والهدى هدى الله .

هذا وقد جاءت الأحاديث الكثيرة التى تبين المراد بهذا العلم ، وتذكر فضله وثمراته ، ومنزلة أهله فلنذكر بعضها لما لها من تعلق لما نحن بصدده

— أخرج الشيخان : البخارى ومسلم عن حميد بن عبد الرحمن أنه قال : سمعت معاوية خطيبا يقول: سمعت النبى ﷺ يقول « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

وأخرج الشيخان كذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها) .

— وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذه بحظ وافر » .

رواه أبوداود والترمذي .

— وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

وقوله ﷺ (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) .

المراد بالقوم في الحديث الرجال دون النساء لأنهم الذين يذهبون إلى المساجد ويجتمعون فيها للصلاة ، والذكر ، وتلاوة القرآن .

وهذا المعنى للفظ القوم يتسق مع المعنى اللغوي، فإن لفظ القوم الأصل فيه أنه للرجال ، لأنهم القائمون بالأمور، قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) (الحجرات : ١١)

وقال زهير بن أبي سلمى .

وما أدري وسوف إخال أدري
أقـــوم آل حصن أم نساء

فى الآية الكريمة وقع عطف النساء على القوم ، وكذا فى بيت زهير والعطف يقتضى المغايرة .

وقوم كل رجل شيعته وعشيرته رجالا أو نساء ، ولذلك فقد يطلق لفظ القوم على الجماعة من الرجال والنساء ، ومن ذلك قول الله تعالى فى التنزيل (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال : يا قوم إنى لكم نذير مبين) (نوح : ١،٢) .

وهكذا كل ما كان من هذا القبيل فى القرآن وغيره .

وبيوت الله : هى المساجد ، وأضيفت إليه سبحانه تعظيما لها وتشريفا ، لأنها يذكر فيها اسمه ، وتقام فيها الصلاة تقربا إليه ، ويتلى فيها كتابه ، ويجتمع الناس فيها على الحق والخير ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وهى ملتقى الصالحين من عباده ، ومهبط رحماته ، وموضع نظره فى الأرض .

والتقييد فى هذا الحديث للاجتماع بأنه فى المسجد خرج مخرج الغالب ، فلو اجتمع قوم فى رباط أو مدرسة أو غيرهما فإنهم ينالون هذا الفضل الذى تضمنه الحديث .

كذلك لو كان الاجتماع لمدراسة علم شرعى ، أو لذكر الله وتسبيحه وتحميده وتمجيده ، فإن الله يمنحهم كذلك هذا الفضل .

فذكر القرآن هنا إنما هو لشرفه وعلو شأنه ، إذ هو الذكر الحكيم ، وهو أعلى الأذكار وأصلها ، وفيه كل ما يصقل القلوب وينقيها ، ويهذب النفوس ويصفيها ، وكل ما يؤهل المؤمن للرقى فى معارج الفضل والقرب والكمال .

وحسبك أنه يخرج بالمؤمن الذى يتدبره ، ويتلوه حق تلاوته من نطاق الزمان والمكان ليحيا بروحه وفكره مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ويعيش معهم فى دعواتهم لربهم ، وجهادهم لأممهم ، ومواقفهم مع الناس والحياة من حولهم ، فيرى عاقبة المتقين ، ومصارع القوم الظالمين .

وليعيش بروحه وفكره كذلك مع أهل الموقف وما هم فيه أحوال وأهوال ثم ماسيصير إليه أمرهم بعد ذلك حين يستقر أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، ثم يسمع ويحس ما يتقاول به أهل الجنة مما يدل على منتهى الفرح والطمأنينة والسرور ، وما يصطرخ به أهل النار مما يدل على نهاية الحسرة ، ومنتهى اليأس ، وهكذا .

نعم إن المؤمن فى خلال تدبره للقرآن مع نفسه أو مع إخوانه يطل على الحياة كلها فى أولها وأبدها ، فى دنياها وآخرتها من البرج العالى الذى عرج به القرآن إليه . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

يدل على ذلك ما أخرجه مسلم رحمه الله عن الأغر أبى مسلم أنه قال : أشهد على أبى هريرة وأبى سعيد أنهما شهدا على النبى ﷺ أنه قال « لا يقعد قوم يذكرون الله عزوجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة : وذكرهم الله فيمن عنده » (كتاب الذكر والدعاء — فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر) .

فلم يقيد القعود بأن يكون فى المسجد ، وجاء فيه بلفظ الذكر الذى يتناول القرآن وغيره .

وتلاوة القرآن : قراءته ، ومدارسته : قراءته وتعهده لئلا ينسى ، والذين يتلون القرآن حق تلاوته : هم الذين يتدبرونه ، ويتعظون بمواعظه ، ويعتبرون بآياته ، ويحلون حلاله ، ويحرمون حرامه .

وقد ساق الحافظ ابن كثير فى تفسيره طائفة من أقوال الصحابة رضوان الله عليهم فى تأويل قول الله تعالى (يتلونه حق تلاوته) .

— عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه (يتلونه حق تلاوته) إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار) .

— وقال ابن مسعود : والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله .

— وعن ابن عباس فى هذه الآية قال : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ولا يحرفونه عن مواضعه .

— وقال الحسن البصرى : يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه ، (أنظر تفسير الحافظ ابن كثير ١/١٦٣).

وأما السكينة فقد قيل فيها كلام كثير فى معناها عموما ، وفى المراد منها هنا خصوصا .

فنقل الإمام النووى عن القاضى عياض أن المراد بها هنا الرحمة ، ثم قال : إنه ضعيف لعطف الرحمة عليه ، ورجح رحمه الله أنه الطمأنينة والوقار .

وقد أورد الحافظ ابن حجر فى الفتح أقوال أهل العلم واختياراتهم وترجيحاتهم فى لفظ السكينة فقال : روى الطبرى عن على أنه قال : هى ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان ، وقيل : لها رأسان ، وعن مجاهد : لها رأس كرأس الهر . وعن الربيع بن أنس : لعينها شعاع ، وعن وهب بن منبه : هى روح من الله ، وعن الضحاك بن مزاحم قال : هى الرحمة ، وعنه :

هى سكون القلب ، وهذا اختيار الطبرى : وقيل : هى الطمأنينة ، وقيل : الوقار ، وقيل : الملائكة .

ثم عقب ابن حجر على هذه الأقوال بقوله : والذى يظهر أنها مقولة بالاشتراك على هذه المعانى ، فيحمل كل موضع وردت فيه على ما يليق به .. ثم نقل عن النووى قوله : المختار أنها شىء من المخلوقات فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة ، انتهى بتصرف واختصار (فتح البارى ١٠/٤٣٤) .

ومعنى (غشيتهم الرحمة) أى لفتهم وغمرتهم .

ومعنى حفتهم الملائكة) أى أحدقت بهم ، وقعدت معهم ، فأمنت على دعواتهم ، ونقلت عقب ذلك حالهم إلى ربهم ،

وقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « إن لله ملائكة سيارة فضلا يتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم ، وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء ، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، قال : فيسألهم الله وهو أعلم بهم : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك فى الأرض يسبحونك ، ويكبرونك ، ويهللونك، ويسألونك ، قال: وماذا يسألونى؟قالوا : يسألونك جنتك ، قال : وهل رأوا جنتى؟قالوا: لا أى رب ،قال: فكيف لو رأوا جنتى ؟ قالوا :ويستجيرونك ، قال:ومم يستجيروننى ؟ قالوا : من نارك ، قال: وهل رأوا نارى ؟ قالوا : لا ، قال : فكيف لو رأوا نارى ، قالوا : ويستغفرونك ، قال : فيقول : قد غفرت لهم ، فأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا ، قال : فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم ، قال : فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (مسلم ١٧/١٥) .

ففى هذا الحديث بيان وتفصيل لهؤلاء الملائكة ، فهم سياحون ليس لهم وظائف خاصة، وإنما وظيفتهم التماس مجالس الذكر والعلم وتلاوة القرآن ثم هم يجلسون مع الذاكرين ويحدقون بهم ، وهم عدد كثير كما يشعر بذلك الحديث (حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا) وأنهم يعرجون بعد ذلك إلى السماء ويخاطبهم ربهم بما تضمنه الحديث مما يدل على عظم فضل هذه المجالس ، وارتفاع شأن الجالسين فيها ، والمواظبين عليها ، وأن أصحابها مكرمون مكرم بهم من خالطهم وجلس معهم ، وأن دعواتهم مجابة ، وحوائجهم مقضية ، وأنهم من ربهم بمكان عظيم .

وأما قوله ﷺ (وذكرهم الله فيمن عنده) فمعناه أن الله سبحانه وتعالى يذكرهم فى أهل الملا الأعلى فيكون منهم الدعاء لهم، والثناء عليهم، والاستغفار لذنوبهم .والدعاء لهم سؤال يجيبه الله ، والثناء عليهم شهادة يقبلها سبحانه — وفى الحديث الذى صدر به مسلم كتاب الذكر والدعاء (وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ هم خير منهم) والدليل على أن من عند الله هم الملائكة قوله تعالى (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه وله يسجدون)(١) وقوله(وله من فى السموات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ، ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون)(٢) .

والعندية هنا عندية مكانة وقرب وعلو منزلة ، لا عندية مكان .

وأما قوله ﷺ (ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) فمعناه أن العمل هو الميزان الذى يكون به القبول عند الله ، ثم المنزلة عنده ، وأن من نقص عمله لا يجبره أن يكون صاحب حسب ونسب ، وهو تحذير من النبى ﷺ أن يعتمد بعض الناس على أحسابهم وأنسابهم ويقصروا فى العمل .

---

(١) الأعراف : ٢٠٦

(٢) الأنبياء : ١٩ ، ٢٠

وقد شبه النبي ﷺ العمل بمطية ، وأنها إذا كانت قوية نشيطة أسرعت بصاحبها ، وأوصلته إلى مقصده فى أقل وقت، وأما إذا كانت ضعيفة هزيلة لم يتعهدها صاحبها فإنها لا توصل صاحبها إلا فى أزمان متطاولة ، وربما لكبو بصاحبها ، ولا تقوى على حمله والوصول به إلى غايته ، فتحدق به الأخطار ، وهو لا يستطيع الرجوع أو الفرار .

وفى هذه العبارة الشريفة استعارتان مكنيتان ، فقد شبه العمل والنسب كلاهما بمطية ، ثم حذف المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه، وهو التبطىء فى العمل ، وانتفاء الإسراع فى النسب .

وهذه الجملة وقعت كالتعقيب والتذييل بالنسبة لما تقدمها من عبارات الحديث ، فهى حقائق تنطوى على نصائح غالية ، وقرب جليلة سامية ، من شمرلها ، وسعى فيها ، ونهض بأعبائها كان من السابقين ، ومن قصر فيها سبقه المجدون ، وتفوق عليه العاملون ، ولا ينفعه مع التقصير حسب ولا نسب ، ولا جاه ولا سلطان .

ما يؤخذ من الحديث :

وفى الحديث فضل قضاء حوائج المسلمين ، ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة ، أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك .

وفيه فضل الستر على المسلم الذى ظاهر أمره الصلاح والتصون .

وفضل إنظار المعسر ، أو إبرائه والوضع عنه .

وفضل السعى فى طلب العلم الشرعى .

وفضل الاجتماع على تلاوة القرآن وذكر الله فى المساجد ، وهو مذهب جمهور أهل العلم خلافا لمن نازع فيه ، وهذا الحديث صريح فى المسألة .

وفيه أن الجزاء من جنس العمل ، وأن من أحسن إلى عباد الله تولى الله جزاءه .

وأن الله — بمنه وكرمه ولطفه وحكمته — جعل للخير أسبابا ، وللقربات أبوابا .

وأن الله قد يعجل بعض الثواب في الدنيا لعباده المؤمنين تيسيرا عليهم، وإدخالا للأنس والسكينة إلى قلوبهم .

قال سبحانه (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) (الليل : ١ — ١٠) .

وقال (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا) (الطلاق : ٢ ، ٣) .

وقال (نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) (يوسف : ٥٦ ، ٥٧) .

وفيه غير ذلك لمن تأمل ، والله أعلى وأجل .

٢٨ – فَضْلُ كَافِلِ الْيَتِيم

عن سَهْلِ بنِ سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال (أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنةِ هكذا) وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى . متفق عليه

الشرح والبيان

يتضمن هذا الحديث الشريف بشارة عظيمة لمن يكفل اليتيم ، ويقوم بأموره ، ويرعى مصالحه ، ويرقب الله فيه ، ويكفي أن ندرك أن منزلته في الجنة وقربه من النبي ﷺ كما بين السبابة والوسطى ، وهما متجاورتان، لاتزيد إحداهما على الأخرى إلا يسيراً.

واليتيم : هو من فقد أباه قبل البلوغ ، فإذا بلغ زالت عنه صفة اليتم حقيقة ، وقد تطلق عليه مجازاً باعتبار ماكان — هـــذا في الناس ، أما في الدواب فاليتيم من فقد أمه.

قال ابن منظور . اليتم في الناس: فقد الصبي أباه قبل البلوغ، وفي الدواب فقد الأم ، وأصل اليتم — بالضم والفتح — : الانفراد ، وقيل : الغفلة ، والأنثى يتيمة ، وإذا بلغا زال عنهما اسم اليتم حقيقة ، وقد يطلق عليهما مجازاً بعد البلوغ (لسان العرب ١٣٢/١٦) .

(وكافل اليتيم) هو من يقوم بأموره ، ويرعى مصالحه .

وإطلاق العبارة في كافل اليتيم مؤذن بأنه سينال ذلك الفضل الكبير ، سواء كان اليتيم قريباً له أو غير قريب.

وهذا الذي تشير إليه عبارة حديثنا هذا جاء مصرحا به في حديث مرسل ، قال ابن حجر بعد سوق عبـــارة الحديث زاد مالك من مرسل

صفوان بن سليم (كافل اليتيم له أو لغيره) ، ثم قال : ووصله البخارى فى (الأدب المفرد) والطبرانى من رواية أم سعد بنت مريم الفهرية عن أبيها ، ثم قال : ومعنى (له) بأن يكون أبا أو جداً ، أو عماً أو أخاً أو نحو ذلك من الأقارب ، أو يكون أبو المولود قد مات فتقوم أمه مقامه . أو ماتت أمه فيقوم أبوه فى التربية مقامها .

وأخرج البزار من حديث أبى هريرة موصولا (من كفل يتيما له قرابة، أولا قرابة له) .

قوله (وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى) .

فى رواية الكشميهنى : السباحة بدل السبابة ، وهى الأصبع التى تلى الإبهام ، سميت سباحة لأنه يسبح بها فى الصلاة ، فيشار بها فى التشهد لذلك وهى السبابة لأنها يسب بها الشيطان حينئذ .

قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبى ﷺ فى الجنة ، ولا منزلة فى الجنة أفضل من ذلك .

قال ابن حجر : وفيه إشارة إلى أن بين درجة النبى ﷺ وكافل اليتيم قدر تفاوت ما بين السبابة والوسطى ، وهو نظير الحديث الآخر (بعثت أنا والساعة كهاتين).

وقد وقع فى رواية أم سعيد المذكورة عند الطبرانى (معى فى الجنة كهاتين إذا اتقى) يعنى المسبحة والوسطى .

— ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حالة دخول الجنة، لما أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة رفعه (أنا أول من يفتح باب الجنة فإذا امرأة تبادرنى ، فأقول : من أنت ؟ فتقول : أنا امرأة تأيمت على أيتام لى)ورواته لا بأس بهم ، وقوله (تبادرنى) أى لتدخل ، معى أو لتدخل فى أثرى ،

— ويحتمل أن يكون المراد بمجموع الأمرين : سرعة الدخول ، وعلو المنزلة ، وقد أخرج أبو داود من حديث عوف بن مالك رفعه (أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين فى الجنة : امرأة ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى ماتوا أو بانوا) فهذا فيه قيد زائد ، وتقييده فى الرواية التى أشرت إليها بقوله (اتقى الله) أى فيه يتعلق باليتيم المذكور ، وقد أخرج الطبرانى فى المعجم الصغير من حديث جابر (قلت : يارسول الله ، مم أضرب منه يتيمى ؟ قال : مما كنت ضارباً منه ولدك ، غير واق ماله بماله) وقد زاد فى رواية مالك المذكور (حتى يستغنى عنه) فيستفاد منه أن للكفالة المذكورة أمداً .

قال شيخنا فى شرح الترمذى : لعل الحكمة فى كون كافل اليتيم يشبه فى دخول الجنة ، أو شبهت منزلته فى الجنة بالقرب من النبى أو منزلة النبى لكون النبى شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاهم ومعلما ومرشدا ، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه ، بل ولا دنياه ، ويرشده ، ويعلمه ، ويحسن أدبه فظهرت مناسبة ذلك . انتهى . ملخصاً — نقل ذلك الحافظ فى الفتح — وشيخ ابن حجر هو الحافظ العراقى .

وفى الحديث فضل كفالة اليتيم ، وعظيم منزلته إذا اتقى ربه ، وراعى أمانته ، وأن الإشارة تنزل منزلة التصريح ، وفيه فضل رعاية المساكين والأرامل والمرضى والضعفة لشبههم باليتيم ، وفضل الرحمة العامة بالناس ، ورعاية حقوقهم .

وأن تمام الأمور وكمالها إنما هو بتقوى الله ومراقبته فى السر والعلانية ، وفيه غير ذلك لمن تأمل ، والله أعلى وأجل .

٢٩ — استحبابُ العفوِ والتواضع

عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال «ما نقصتْ صدقةٌ من مالٍ، وما زاد اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه اللهُ» رواه مسلم.

الشرح والبيان

الصـــدقة: ما يخرجه المسلم من ماله، ويعطيه للفقراء والمحتاجين ابتغاء مرضاة الله تعالى، وقد غلب إطلاقها على ما يخرجه المسلم متطوعاً به.

قال صاحب القاموس: الصدقة: ما أعطيته في ذات الله تعالى.

— وتطلق الصدقة على الزكاة المفروضة ونحوها كزكاة الفطر، قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم، والله سميع عليم) (التوبة: ١٠٢).

وقال (إنما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم) (التوبة: ٩٠).

— وتطلق كذلك على ما يتطوع المؤمن بإخراجه دون أن يكون فرضاً عليه أو واجباً.

قال عليه الصلاة والسلام (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب — ولا يقبل الله إلا الطيب — فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لأحدكم، كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل)(١) متفق عليه.

---

(١) الفلو: بضم الفاء وسكون اللام، ويقال كذلك بكسر الفاء — وبفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو وهو: المهر.

— وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال (اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله) متفق عليه .

— وتطلق كذلك فى عرف الشرع على كل ما يفعله المرء أو يقوله من الخير ، وعلى ما هو أعم من ترك الشر .

— عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ (على كل مسلم صدقة ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قالوا : فإن لم يستطع أو لم يفعل ؟ قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال : فليأمر بالخير أو قال بالمعروف ، قال : فإن لم يفعل ؟ قال : فليمسك عن الشر ، فإنه له صدقة) متفق عليه .

— وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة) متفق عليه .

والمراد بالصدقة فى الحديث : ما يخرجه المسلم من ماله ابتغاء مرضاة ربه ، أعم من أن تكون فرضا أو نفلا .

وسميت صدقة لأنها مصداق لإيمان صاحبها بربه ، ووعده بالثواب والإخلاف ، ولتحرى صاحبها الصدق بفعلها ، ففى الحديث « والصدقة برهان » رواه مسلم .

قال الإمام النووى رحمه الله : قوله ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) ذكروا فيه وجهين :

أحدهما معناه يبارك فيه : ويدفع عنه المضرات ، فيجبر نقص الصورة بالبركة الخفية ، وهذا مدرك بالحس والعادة .

والثانى : أنه وإن نقصت صورته كان فى الثواب المرتب عليه جبر لنقصه ، وزيادة إلى أضعاف كثيرة .

وقريب من هذا قول الله عز وجل (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين) (سبأ : ٣٩) :

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية : أى مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به ، وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم فى الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت فى الحديث (يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك)(١) .

وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكا تلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا)(٢) .

وقال ﷺ (أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا)(٣) .

وأما قوله ﷺ (ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزا) .

فالعفو : هو الصفح وترك عقوبة المستحق ، والعز : خلاف الذل ، والعز فى الأصل : القوة والشدة والغلبة ، والعز والعزة : الرفعة والامتناع

(انظر لسان العرب : ٧ / ٢٤١) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير ، والقضاعى فى مسنده عن ابن مسعود ، وكذا البزار عن عائشة ، وأخرجه البزار أيضا عن أبى هريرة ، ورواه البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة (انظر : كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس ١ / ٢٤٣) .

قال الإمام النووى : فيه أيضا وجهان :

أحدهما أنه على ظاهره ، وأن من عرف بالصفح ساد وعظم فى القلوب وزاد عزه وإكرامه .

والثانى : أن المراد أجره فى الآخرة وعزه هناك .

والأول هو الراجح ، لأن أجر الآخرة وعزها أمر مفروغ منه ، لايحتاج إلى تقرير أو بيان ، وإنما الذى يحتاج إلى تنبيه وبيان مايتعلق بالدنيا من ذلك .

ولقد كان الناس ومازالوا إلا قليلا منهم يظنون أن العفو عن الناس ، واحتمال أذاهم ، وترك المرء الانتقام لنفسه من الأمور التى من عرف بها صار ذليلا ، واستصغر الناس شأنه ، فبين لهم النبى صلى الله عليه وسلم أن الأمر ليس كما يظنون ، بل هو نقيض مايظنون ، وأن العفو والصفح سبب فى زيادة العز والرفعة ، والفضيلة والمكرمة .

والعفو من مكارم الأخلاق ، ومعالى الأمور ، أمر الإسلام به ، وحث عليه ، ورغب فيه ، ووعد أصحابه خيرا كثيرا ، وأجرا عظيما .

قال تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين) . (الأعراف : ١٩٩)

وقال (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين) (آل عمران : ١٣٣ - ١٣٤)

وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) (الشورى : ٤٣)

وقال (فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لايحب الظالمين) (الشورى ٤٠) .

وقال (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؛ والله غفور رحيم) (النور : ٢٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم (وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله) .

التواضع : هو التذلل والتخاشع ، وقوله (لله) ليفيد أن صاحبه مخلص لله بتواضعه ، وأنه لم يرد به أمرا ماديا ، ولا مطلبا دنيويا ، وانه ليس صادرا عن ذل وضعة ، وإنما عن إخلاص لله ، والتماس لمرضاته . وقوله (إلا رفعه الله) ليبين عليه الصلاة والسلام أن الله سبحانه هو الذى يرفع قدره ، ويعلى شأنه ، ويثبت له المنزلة العالية عنده ، وفى قلوب عباده من أهل السماء وأهل الأرض ، فى الدنيا والآخرة ،

والمعنى : أن الذى يتواضع لأمر الله ، ولعباد الله ، لايدفعه إلى ذلك إلا إيمان بالله ، وإخلاص له وصدق معه ، فإن الله سبحانه هو الذى يرفع منزلته ، ويعلى قدره .

فالتواضع لا يحط من شأن صاحبه عند الناس ، وإنما هو وسيلة إلى الرفعة وعلو المنزلة ، ما أراد به صاحبه الله والدار الآخرة .

وإذا تأملنا العبارة النبوية الشريفة وجدنا أن هذا التواضع لا يتحقق إلا من المؤمن الذى يؤمن بالله ، ويريد بعمله وجهه ومرضاته .

وقد أمر الله بالتواضع ، ورغب فيه ، قال تعالى (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) (الحجر ٨٨) .

وقال (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) (الإسراء ٢٤) .

— وعن عياض بن حمار رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ

(إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد) رواه مسلم .

— وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبى ﷺ فتنطلق به حيث شاءت) ، رواه البخارى .

— وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال (ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، قال أصحابه : وأنت ؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة) رواه البخارى .

والآيات والأحاديث فى التواضع كثيرة — وفيما سقناه كفاية .

ويؤخذ من الحديث فضل هذه الأخلاق التى ذكرها الحديث ، وأن الأعمال الصالحة لها ثمراتها العاجلة ، وثوابها فى الآخرة .

وأن على المؤمن أن يصغى إلى نصائح الشرع ، ولا يلتفت إلى ماخالف عنها من نوازع الطبع .

وأن الفضائل إنما تزكو بالإيمان بالله والإخلاص له ، والرغبة فيما عنده .

وفيه غير ذلك لمن تأمل ، والله وحده ولى الفضل والتوفيق والهادى لأقوم طريق .

٣٠ — على كلّ مُسْلِمٍ صدقة

عن أبي موسى الأشعريّ رضي اللهُ عنه أنه قال : قال النبيُّ ﷺ (على كل مسلمٍ صدقةٌ ، قالوا : فإن لم يَجِدْ ؟ قال : فيَعْمَلُ بيديه ، فينفعُ نفسَه ويتصدقُ ، قالوا : فإن لم يستطعْ أو لم يفعلْ ؟ قال : فيعينُ ذا الحاجةِ الملهوفَ ، قالوا : فإن لم يفعلْ ؟ قال : فليأمرْ بالخيرِ أو قال بالمعروفِ ، قال : فإن لم يفعلْ ؟ قال فليمسكْ عن الشرِّ فإنهُ له صدقة) .

أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الأدب — باب كل معروف صدقة ، وأخرجه في الزكاة — باب على كل مسلم صدقة ، فمن لم يجد فليعمل بالمعروف .

الشرح والبيان

قوله ﷺ (على كل مسلم صدقة) .

هذه العبارة تفيد أن كل مسلم مطالب بالصدقة ، أيًا كان حاله من الغنى والفقر ، والقدرة والعجز ، لكن هل هذا الطلب على سبيل الإلزام والإيجاب ، أو على سبيل الندب والاستحباب ، أو على ما هو أعم من ذلك ، بحيث يشمل الإيجاب والاستحباب جميعًا ؟ إن العبارة صالحة لذلك كله ، وقد يأمر الشارع بأشياء وينصح المسلمين بفعلها ، ويكون فيها الواجب والمندوب ، وقد يكون الوجوب كفائيًا على جماعة المسلمين بحيث إنه إذا قام به البعض سقط الوجوب عن غيرهم .

وذلك كالحديث الذي أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه قال (أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ، ونهانا عن سبع : أمرنا

بعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعى ، ورد السلام ، ونهانا عن خواتيم الذهب ، وشرب الفضة ، وعن المياثر ، وعن القسى ، والحرير والإستبرق والديباج) .

فالأشياء السبعة التى أمر بها النبى ﷺ هى بعض المطلوبات شرعا أعم من أن تكون واجبة وجوبا عينيا أم كفائيا أو مندوبة .

وهذه الصدقة مطلوبة من المسلم فى كل يوم ، ففى حديث أبى ذر عند مسلم (يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة) والسلامى — بضم السين وتخفيف اللام هى المفصل .

ولمسلم فى حديث عائشة رضى الله عنها (خلق الله كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلثمائة مفصل ، فمن كبر الله ، وحمد الله ، وسبح الله ، واستغفر الله ، وعزل حجرا عن طريق الناس ، أو شوكة وعظما عن طريق الناس ، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد الستين والثلثمائة فإنه يمسى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة) متفق عليه .

وإذن فالصدقة مطلوبة من المسلم كل يوم ، وهى مطلوبة من كل مسلم أيا كان حاله ، ثم إنها ليست صدقة واحدة ، بل هى صدقات كثيرة ، وأنها ليست منحصرة فى أموال نعطيها ، وأمتعة نمنحها ونؤتيها ، وإنما هى تشمل

كل عمل من أعمال الخير ، بل تشمل الإمساك عن الشر ،وفى الحديث (كل معروف صدقة) .

والمعروف : اسم كل فعل يعرف حسنه بالشرع والعقل معا .

وقال ابن أبى جمرة : يطلق اسم المعروف على ما عرف بأدلة الشرع أنه من أعمال البر ، سواء جرت به العادة أم لا .

(قالوا : فإن لم يجد ؟)

أى قال الصحابة رضى الله عنهم ، أوقال بعضهم، ونسب القول لجميعهم، لأنهم كانوا إليه متطلعين ، وعليه موافقين — والشىء قد ينسب للجماعة إذا قام به واحد منها ، وكانت تلك الجماعة به راضية ، وعليه موافقة، وقد تقدم شىء من ذلك وكأنهم ظنوا — رضى الله عنهم — أن الصدقة منحصرة فى الأموال والأمتعة ونحوهما ، ولذلك كان منهم هذا السؤل ، فبين لهم ﷺ أن من لم يكن له ما يتصدق به فإنه يستطيع ذلك إذا أقبل على العمل ، فنفع نفسه ، وتصدق على غيره ، ولذلك قال النبى ﷺ (فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق) .

والترغيب فى العمل هنا فيه فوائد كثيرة أشار الحديث إلى بعضها ،منها أنه ينفع نفسه ، وينفق على من يعول ، ثم يتصدق ليتقرب إلى ربه بنفع إخوانه ، وفك ضوائقهم وتفريج كروبهم — إلى جانب أن فى العمل باليد امتهانا للنفس ، وكسراً لسورة كثير من الرذائل كالكبر والبطر والعجب ، وبعدا عن البطالة والكسل .

وتقديم النفس على الغير لأنها أهم قال النبى ﷺ (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) .

(قالوا : فإن لم يستطع أو لم يفعل) أى فإن لم يستطع العمل لعجزه وضعفه ، أو لم يفعل لقلة رغبته فى ذلك ، والمرء يترك العمل — فى الأعم الأغلب — لواحد من سببين : إما لضعفه عنه ، وعجزه عن القيام به ، وإما لقلة رغبته فيه مع قدرته عليه ، والعبارة تشير إلى الأمرين جميعا .

قال (فيعين ذا الحاجة الملهوف) :

والمعنى إن لم يعمل لعجز أو لقلة رغبة فلم يكن له ما يتصدق به ، فعليه أن يعين صاحب الحاجة الملهوف .

والملهوف هو المستغيث أعم من أن يكون مظلوما أو عاجزا . وفى الحديث (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة) .

وما أكثر طوارق الليل والنهار التى تنزل بالمرء وتفجأه ، فتفتقد حاجته إلى معونة إخوانه وجيرانه ، وهى طوارق تفجأ الغنى والفقير ، والقادر والعاجز .

ومن حكمة الله فيها أن يشعر المرء أيا كان حاله من القوة والقدرة والغنى بحاجته إلى ربه يستغيث به ويتضرع إليه ، وبحاجته إلى إخوانه وجيرانه وأقاربه فلا يتكبر عليهم ، ولا يتجبر ، وبحاجته إلى هذه الطوارق والمنبهات لتردده إلى ربه ، وتوقفه على ضعفه ، وليعلم أن رحمة الله وعطاءه فى النعمة والبلية سواء ، والله جل جلاله يقول (ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون) (الأنبياء : ٣٤) .

(قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال فليأمر بالخير أو قال بالمعروف) .

أى فإن لم يغث الملهوف ؟ قال ﷺ فعليه أن يأمر بالخير أو قال المعروف ، وشك من الراوى .

والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر من أخص صفات هذه الأمة ، ومن أبرز سماتها ، وبها كانت خير الأمم ، قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) (آل عمران : ١٠٤) .

وقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ،وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله) (آل عمران : ١١٠) .

. قال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله) (التوبة : ٧١)

وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا ضل فى الدنيا سعيهم ، وأوجبوا بذلك عذاب ربهم ولعنته ، وغضبه ونقمته ، تصييرهم فى دنياهم ، وتنزل بهم فى أخراهم قال تعالى (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) .

وقال (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) (الأعراف : ١٦٥) .

وفى الحديث (عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان)رواه مسلم .

وعن أم سلمة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برىء ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع ، قالوا : يارسول الله ، ألا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة) رواه مسلم ، قال الإمام النووى : معناه من كره بقلبه ولم يستطع إنكارا بيده ولا لسان فقد برئ من الإثم ، ومن أنكر

بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية ، ومن رضى بفعلهم وكلامهم فهو العاصي(١) اهـ.

(قال : فإن لم يفعل ؟ قال : فليمسك عن الشر فإنه له صدقة).

ومعنى العبارة فإن لم يأمر بالمعروف أو الخير ؟ وهنا قال النبي ﷺ : إذا لم يقم بشيء من ذلك فعليه أن يكف عن الشر فإن الإمساك عن الشر صدقة له على نفسه ، لأنه منعها من التعرض للمؤاخذة والعقاب.

وقد وقع فى كتاب الزكاة (فإنها له صدقة) والمراد الخصلة.

والشر قد يتعلق بالمرء فى نفسه لايجاوزه إلى غيره - بالقصد الأول - مثل شرب الخمر ، ولعب الميسر ، ونحوهما ، وقد يتعلق بغيره ، فما تعلق بالمرء فى نفسه فتركه صدقة منه على نفسه ، وربما على غيره لأنه قلما حصل فساد

---

(١) يشتمل هذا الحديث على آية لرسول الله ﷺ ومعجزة بينة له ، فقد استعمل أمثال هؤلاء على الأمة ، الذين كان فيهم الخير والشر ، واتباع الشريعة حينا واتباع أهواء النفس أحيانا ، والعدل والإنصاف تارة ، والجور والاعتساف تارات.

وقد بين ﷺ أن الناس بإزائهم ثلاثة أصناف : صنف أنكر بقلبه ولم يستطع أن يصدع بالإنكار عليهم ، ولم يرض صنيعهم ، ولم يتابعهم على غيهم فهو برىء من إثم ما يأتون - وصنف لم يرض ولم يتابع وأنكر عليهم مايفعلون أو يذرون فهذا سالم من فعلهم ، وهو أعلى حالا من الصنف الذى قبله ، (وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر). وأما الذين ارتكسوا فى الشر ، وانغمسوا فى الإثم فهم الذين يرضون أفعالهم ويتابعونهم فى مآثمهم بل إن كثيرا منهم يزين لهم الشر والظلم ، والحيف والفساد ، ويغريهم بالتسلط والتجبر ، وقد حذر الله - عز وجل ، وعلا وتقدس - من ركون المسلم للظالمين ، وممالأته للقوم الفاسقين قال تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون) (هود : ١١٣).

خاصر إلا تبعه فساد عام ، ألا ترى أن المرء مثلا إذا شرب الخمر آذى نفسه ، وآذى أولاده وأهله ، وتبع ذلك من سوء التصرف ، والشؤم مايتعدى إلى الناس ، فإن كان موظفا قصر فى عمله ، وإن قاد سيارة عرض أرواح الناس للخطر ، وهكذا ، ومانعلق بغيره فهو صدقة منه على ذلك الغير بالسلامة منه، وصدقة منه على نفسه كذلك . لما سقناه من منعها عن الحساب والمؤاخذة والعقاب .

والظاهر أن الإمساك عن الشر إنما يكون قربة لصاحبه إذا نوى به القربة ، وقد نقل الحافظ ابن حجر عن الزين بن المنير أنه قال: إنما تحصل الصدقة للممسك عن الشر إذا نوى بالإمساك القربة بخلاف محض الترك ، والإمساك أعم من أن يكون عن غيره ، فكأنه تصدق عليه بالسلامة منه ، فإن كان شره لا يتعدى نفسه فقد تصدق على نفسه بأن منعها من الإثم ، قال : وليس ماتضمنه الخبر من قوله (فإن لم يجد) ترتيبا ، وإنما هو للإيضاح لما يفعله من عجز عن خصلة من الخصال المذكورة فإنه يمكنه خصلة أخرى ، فمن أمكنه أن يعمل بيده فيتصدق ، ويغيث الملهوف ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويمسك عن الشر فليفعل الجميع .

ومقصود هذا الباب أن أعمال الخير تنزل منزلة الصدقات فى الأجر ، ولاسيما فى حق من لا يقدر عليها، ويفهم منه أن الصدقة فى حق القادر عليها ، أفضل من الأعمال القاصرة ، ومحصل ما ذكر فى حديث الباب أنه لا بد من الشفقة على خلق الله وهى إما بالمال أوغيره والمال إما حاصل أو مكتسب ، وغير المال إما فعل وهو الإغاثة ، أوترك ، وهو الإمساك انتهى

وقال الشيخ أبو محمد ابن أبى جمرة نفع الله به : ترتيب هذا الحديث أنه ندب إلى الصدقة ، وعند العجز عنها ندب إلى مايقرب منها أو يقوم مقامها ، وهو العمل والانتفاع ، وعند العجز عنه ندب إلى مايقوم مقامه ، وهو الإغاثة ، وعند عدم ذلك ندب إلى فعل المعروف أى من سوى مانقدم كإماطة الأذى .

وعند عدم ذلك تدب إلى الصلاة. فإن لم يطق فترك الشر ، وذلك آخر المراتب ، ومعنى الشر هنا مامنعه الشرع ، ففيه تسلية للعاجز عن فعل المندوبات إذا كان عجزه عن ذلك عن غير اختياره انتهى .(انظر فى هذه النقول فتح البارى ٤/٥١) .

وعقب عليه ابن حجر بعد نقله له فى الفتح بقوله (وأشار بالصلاة إلى ماوقع فى آخر حديث أبى ذر عند مسلم (ويجزى عن ذلك كله ركعتا الضحى) .

وفى الحديث أن الأحكام تجرى على الغالب، لأن فى المسلمين من لايجد الصدقة من المال ليخرجها، بل إنه يأخذها وقد قال ﷺ (على كل مسلم صدقة).

وفيه كثرة طرق الخير ، وتعدد وجوهه ، وتحريض المسلم على السعى فى طلب ذلك ، وأنه إن عجز عن شىء أو فترت همته عن النهوض به قام بغيره ، وفيه فضل التكسب والعمل باليد لما فيه من إعفاف المرء نفسه ، وإغنائه لعياله ، وإعانته لغيره ، وتقديم النفس على الغير ، والمراد بالنفس ذات الشخص أولا ومن يلزم بعد ذلك .

وفيه مراجعة العالم فى تفسير المجمل ، وتوضيح المشكل ، وتخصيص العام

وقد استدل الكعبى بظاهر الحديث على أنه ليس فى الشرع شىء يباح ، بل إما أجر وإما وزر ، فمن اشتغل بشىء عن المعصية فهو مأجور عليه .

قال ابن التين:والجماعة على خلافه،وقد ألزموه أن يجعل الزانى مأجورا، لأنه يشتغل به عن غيره من المعصية .

وقد أجاب الحافظ ابن حجر عن ذلك فقال : ولا يرد عليه هذا ؛ لأنه إنما أراد الاشتغال بغير المعصية ، ثم يمكن أن يرد عليه ما لو اشتغل بعمل صغيرة عن كبيرة كالقبلة والمعانقة عن الزنا ، وقد لا يرد عليه أيضا ، لأن الذى يظهر أنه يريد الاشتغال بشىء مما لم يرد النص بتحريمه .

والله أعلم ، وهو أجل وأحكم .

٣١- حُسْنُ الْخُلُقِ

عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بن العاصِ رضى اللهُ عنهما قال (لم يَكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وإنه كان يقولُ : إن خياركم أحسنكم أخلاقاً). متفق عليه .

الشرح والبيان

كان النبي ﷺ المثل الأعلى فى الشمائل الكريمة ، والأخلاق العظيمة، أقواله أحسن الأقوال ، وأفعاله أفضل الأفعال، وأحواله أكمل الأحوال، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وعلمه فأجمل تعليمه ، وابتعثه إلى سائر خلقه ، وجميع عباده، أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ألبسه سبحانه خلع الكمال ، وأسبغ عليه ثياب الجمال والجلال ، وكرمه فى كتابه . وجعل له المنزلة العظمى بين أصفيائه وأحبابه ، وأمرنا أن نقتدى به لنكون من المهتدين ، ونحشر فى زمرة الأبرار والمقربين، فقال (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً) (الأحزاب ٢١) .

وفى هذا الحديث يبين الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على نهج الكمال ، واقفاً عند حد الاعتدال ، فلم يكن الفحش من شيمته ، ولا التفحش من خلقه وصفته .

والفحش: هو الخروج عن حد الاعتدال حتى تستقبحه الفطر السليمة، والطبائع المستقيمة ، قالوا ويكون فى القول والفعل ، والصفة ، فمن أفرط طوله قيل له : طويل فاحش ، لكنه أكثر ما يستعمل فى القول ،

والمتفحش : هو الذى يتعمد ذلك ، ويكثر منه ، ويتكلفه .

قال ابن حجر . وأغرب الداودى فقـــال : الفاحش : الذى يقول الفحش ، والمتفحش : الذى يستعمل الفحش ليضحك الناس .

وقد كان النبى ﷺ يحرص على التنزه عن الفحش والتفحش ، ويربى أصحابه على مكارم الأخلاق ، وأحاسن الصفات — فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال (لم يكن النبى ﷺ سباباً ولا فحاشاً ولا لعاناً ، كان يقول لأحدنا عند المعتبة : ماله ترب جبينه) رواه البخارى .

— وعن عائشة رضى الله عنها أن يهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : السام عليكم ، فقالت عائشة : عليكم ، ولعنكم ، وغضب عليكم ، قال : مهلا ياعائشة . عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، قالت : ألم تسمع ماقالوا ؟ قال : أولم تسمعى ماقلت ؟ رددت عليهم فيستجاب لى فيهم ولا يستجاب لهم فىّ) متفق عليه .

— وقد تقدم حديث عائشة (أن رجلا استأذن على النبى ﷺ — وفى آخره : ياعائشة متى عهدتنى فاحشاً ؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره)(١) .

وأما قوله : (وإن خياركم أحاسنكم أخلاقاً) .

وقع فى رواية الكشميهنى (أحسنكم) وفى رواية أخرى (إن من خياركم) وهى فى كتاب الأدب من صحيح البخارى فى باب (لم يكن النبى ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً) وهى مرادة هنا .

قال القرطبى : الأخلاق هى أوصاف الإنسان التى يعامل بها غيره ، وهى محمودة ، ومذمومة ، فالمحمودة على الإجمال : أن تكون مع غيرك على نفسك ، فتنصف منها ، ولاتنتصف لها ، وعلى التفصيل : العفو ، والحلم ،

---

(١) أنظر ص ١٥٢ من هذا الكتاب .

والجود ، والصبر ، وتحمل الأذى ، والرحمة ، والشفقة ، وقضاء الحوائج ، والتوادد ولين الجانب ، ونحو ذلك . والمذموم منها ضد ذلك .

والأخلاق : جمع خلق ، بضم اللام ، ويجوز سكونها ، قال الراغب : الخلق والخلق — يعني بالفتح والضم — بمعنى واحد كالشرب والشرب ، لكن خص الخلق الذي بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر ، وخص الخلق الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة انتهى ، وفي الحديث : كان النبي ﷺ يقول (اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي)

وأما الحسن فقال الراغب : هو عبارة عن كل مرغوب فيه ، إما من جهة العقل ، وإما من جهة الحس ، وأكثر ما يقال في عرف العامة فيما يدرك بالبصر ، وأكثر ما جاء في الشرع فيما يدرك بالبصيرة . انتهى . .

وفي حسن الخلق جاءت أحاديث كثيرة ترغب فيه ، وتبين منزلة أصحابه ، وتوضح الصلة الوثيقة بينه وبين كمال الإيمان ، وما لأصحابه من فضائل ومكارم في دنياهم وآخرتهم .

— عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

— وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ، فقال : البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس) رواه مسلم .

— وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » رواه أبو داود .

— وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

— وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال (سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة . فقال : تقوى الله ، وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال ، الفم والفرج ، رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

— وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) رواه أبو داود باسناد صحيح .

— وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون ، والمتشدقون ، والمتفيهقون ، قالوا : يارسول الله ، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

— وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم بسط الوجه ، وحسن الخلق) رواه البزار بسند حسن .

وقد اختلف أهل العلم في الخلق هل هو غريزة أو مكتسب . فمنهم من ذهب إلى أنه غريزة ، ومنهم من ذهب إلى أنه مكتسب ، ومنهم من ذهب إلى أن منه ما هو غريزة ، ومنه ما هو مكتسب وهو الصحيح الذي تؤيده شواهد الكتاب والسنة ، ويثبته النظر الصحيح .

والدليل على أن الخلق منه الغريزي ومنه المكتسب حديث عبد الله بن

مسعود رضى الله عنه، وهو عند الإمام أحمد فى المسند، والبخارى فى الأدب المفرد (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم) .

ووجه الدلالة أن الرسول ﷺ شبه قسمة الأخلاق بقسمة الأرزاق، وإذا كانت الأرزاق منها الموهوب ، ومنها المكسوب ، فكذلك الأخلاق ، وإذا كان المرء يسعى فى تبديل قلته إلى كثرة، وفقره إلى غنى ، فهو مطالب كذلك بأن يجاهد نفسه ، ليطهرها من الرذائل ، ويكملها بالمحامد والفضائل.

وبمقدار جهاده لنفسه ، واستعانته بربه يكون توفيقه فى مهمته ، واجتذاب الله له ليكون عبداً لربه ومولاه ، متحرراً من أسر نفسه وشيطانه وهواه قال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) (العنكبوت : الآية الأخيرة) .

وقد وقع فى حديث أشج عبد القيس عند أحمد والنسائى والبخارى فى الأدب المفرد وصححه ابن حبان (إن فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة . قال : يارسول الله قديما كانا فى أو حدثاً ؟ قال : قديما ، قال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما) قال ابن حجر بعد إيراده لهذا الحديث فى الفتح : فترديده السؤال ، وتقريره عليه يشعر بأن فى الخلق ماهو جبلى وماهو مكتسب .

وفى الحديث ما كان عليه ﷺ من ترفع عن الدنايا، وتمسك بالأخلاق العالية ، وتربية أصحابه على ذلك ، وتوجيه أمته إلى معالى الأموره وفضيلة حسن الخلق ، وبيان منزلة أصحابه .

وفيه غير ذلك لمن استنارت بصيرته ،وطهرت بذكر الله سريرته، نسأل الله أن يكرمنا بفضله ، ويمدنا بفيض معونته ؛ ويفتح علينا فتحه على الصالحين من عباده — آمين .

٣٢- التواضع ولين الجانب

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضى الله عنه قال (إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ من إماءِ أهلِ المدينةِ لتأخذُ بيدِ رسولِ اللهِ ﷺ فتنطلقُ به حيثُ شاءتْ) متفق عليه.

الشرح والبيان

يعرب الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه بهذا الكلام عن باقة عاطرة من أخلاق رسول الله ﷺ ألا وهى تواضعه العظيم، ولين جانبه، وبراءته البراءة الكاملة من الكبر والتعاظم، وأن ذلك كله من الأمور المعروفة المألوفة التى يدركها الصغير والكبير، والرجل والمرأة والحرة والأمة، فقد كانت الأمة من إماء أهل المدينة تأتى لرسول الله ﷺ فتأخذ بيده فتنطلق به ليقضى لها حاجتها، وتذهب به حيث شاءت، وهو مثل كبير، ونموذج عظيم، يضربه رسول الله ﷺ للدعاة والحكام والرؤساء وسائر الناس، وهى الأخلاق التى من أجلها أحبه الناس وأجلوه، وعزروه ونصروه واجتمعت عليه منهم القلوب والأبدان، فأقامهم على الحق، وأقام الحق بهم.

قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم فى الأمر، فاذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين) (آل عمران: ١٥٩)

هذا وقد جاء هذا الحديث بألفاظ أخرى تضيف الجديد المفيد ففى رواية أحمد (فتنطلق به فى حاجتها).

ومن طريق على بن زيد عن أنس عند أحمد أيضا وابن ماجه (إن

كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت) .

والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد ، ومن المعلوم أن العبارات التي يسلك بها مسلك الكنايات لا يمتنع فيها إرادة المعنى الأصلي كما هو معروف .

قال ابن حجر رحمه الله : وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع : لذكره المرأة دون الرجل ، والأمة دون الحرة ، وحيث عم بلفظ الإماء أي أمة كانت ، وبقوله (حيث شاءت) أي من الأمكنة .

والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة لساعد على ذلك ، وهذا دال على مزيد تواضعه ، وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ .

وفي مدح التواضع وذم الكبر أحاديث كثيرة فمنها :

— ما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس) .

وبطر الحق دفعه ورده على قائله ، وغمط الناس احتقارهم .

— وأخرج عبد بن حميد من حديث ابن عباس رفعه (الكبر السفه عن الحق ، وغمص الناس ، فقال : يا بني الله ، وما هو ؟ قال : السفه أن يكون لك على رجل مال فينكره ، فيأمره رجل بتقوى الله فيأبى ، والغمص أن يجيء شاخا بأنفه ، وإذا رأى ضعفاء الناس وفقراءهم لم يسلم عليهم محقرة لهم) .

— وأخرج أحمد وابن ماجه وابن حبان وصححه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رفعه (من تواضع لله درجة رفعه درجة حتى يجعله في أعلى عليين ، ومن تكبر على الله درجة وضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل سافلين) .

نعوذ بالله من السوء ، ونسأله السلامة العافية ، (اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت) والله أعلم

٣٣ – التَّوَاضُعُ مَنْجَاةٌ مِنَ الآثام

عَنْ عِيَاضِ بن حِمَارٍ رضى اللهُ عنه أنه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ (إن اللهَ أوحى إلىَّ أنْ تواضعوا حتى لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحدٍ ، ولا يَبْغِيَ أحدٌ على أحدٍ) رواه مسلم .

الشرح والبيان

سبق أن عرفنا أن التواضع هو التذلل والتخاشع ، وأنه فضيلة عظيمة من أمهات الفضائل ، يدرك المرء بها كثيرا من خيرات الدنيا والآخرة .

وفى الأمر بها نهى عن ضدها وهو الكبر ، وهو رذيلة من شر الرذائل تجلب لصاحبها شرورا وأكدارا ، وتحمله سيئات وأوزارا .

أما الفخر فهو تمدح المرء بما فيه من خصال ، أو بما له من مال وجمال ، أو حسب ونسب ، أو جاه ومنصب .

وأما البغى فهو العلو فى الأرض ، وظلم الناس ، والعدول عن الحق ، والاستطالة فى أعراض الناس ، وإجمالا : هو التعدى والاستطالة .

وأما الوحى فهو إعلام الله لنبيه ما يريد إعلامه به بوجه من وجوه الإعلام — وهى أربعة : الإعلام عن طريق الملك ، تكليمه من وراء حجاب ، الوحى عن طريق الإلهام والقذف فى الروع — رؤيا المنام — هذا معناه شرعا .

وأما لغة فله معان كثيرة منها : الإعلام فى خفاء ومنها الكتابة ، والمكتوب والبعث ، والإلهام ، والأمر ، والإيماء ، والإشارة ، والتصويت شيئاً بعد شىء ، وكل مادلات به من كلام أو كتابة أو إشارة فهو

وحى[1] و (أن) فى الحديث تفسيرية وهى التى تأتى بعد الجمل .

ومعنى الحديث : أن رسول الله ﷺ يقول : إن الله أوحى إلى بالإلهام أو برؤيا المنام - أو عن طريق الملك - وأمرنى فى نفسى وأمتى بالتواضع إلى الحد الذى لايفخر فيه أحد من الأمة على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد ، بأن يتعالى عليه ، أو يظلمه ، أو يعدل عن الحق فى التعامل معه ، أو يستطيل عليه بشتم أو سب أو لعن ، أو يتجاوز الحق فى معاملته ، فيكذبه إذا حدثه أو يحتقره .

وإذن فالحديث يصرح بأن التواضع الحق يطهر صاحبه من الرذائل ، ويلبسه ثيابا سابغة من الفضائل .

ولقد كان العرب فى جاهليتهم تلفهم ثياب الكبر ، ويذهب بهم البغى مذاهبه . ويطوح بهم الظلم فى أودية سحيقة من الإثم والعدوان ، والقطيعة والكفران ، فجاء الإسلام فأعلن فيهم كلمته ، وأرسى بينهم مبادئه ، واستل من نفوسهم رذائلها ، وغرس فيهم فضائله ، حتى كانوا كما شهد الرحمن فى آى القرآن (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) (الفتح : ٢٩) وقال (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه . أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) (المائدة . ٥٤)

وفى خطبته ﷺ فى حجة الوداع كان من بين ماقال :

(أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ...) والله أعلم وهو أجل وأحكم

---

(١) فتح البارى / ١ ١٢٩

٣٤ـ مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَم

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه قال(قَبَّل رسولُ الله ﷺ الحسنَ بنَ عليٍّ وعندَه الأقرعُ بنُ أبي حابسٍ التَّميميُّ جالساً ، فقال الأقرعُ :إنَّ لي عشرةً من الأولادِ ماقبَّلتُ منهم أحداً، فنظر إليه رسولُ الله ﷺ ثم قال:مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ) متفق عليه .

الشرح والبيان

قول أبي هريرة رضي الله عنه (قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي) هو الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبـد المطلب ، سبط رسول الله ﷺ وريحانته ، ولد في نصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة على الراجح، وكان النبي ﷺ يحبه طبعاً وشرعاً .

ففي صحيح البخاري عن حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما(أنه كان يأخذه والحسن فيقول : اللهم أحبهما فإني أحبهما) .

— وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة ، وإليه مرة ويقول : (ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين) (البخاري في المناقب) .

وعن أنس رضي الله عنه قال(لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي) رواه البخاري وغيره . .

وعن عقبة بن الحارث قال ، رأيت أبا بكر رضي الله عنه وحمل الحسن وهو يقول : بأبي شبيه بالنبي ، ليس شبيه بعليّ ، وعليٌّ يضحك .

رواه البخاري وغيره .

وقد نزل رضى الله عنه لمعاوية عن الخلافة ، وآثر حقن دماء المسلمين وكان ذلك سنة أربعين من الهجرة — ثم توفى بعد ذلك قيل سنة أربع وأربعين أو اسع وأربعين فرضى الله عنه وأرضاه وعن سائر الصحابة وآل البيت أجمعين .

وقوله (وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالساً) .

قال ابن إسحاق . وفد الأقرع بن حابس على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وشهد فتح مكة وحنينا والطائف ، وهو من المؤلفة قلوبهم ، وقد حسن إسلامه ، وشهد كثيراً من الفتوح بعد وفاة النبى ﷺ .

قال ابن دريد : اسم الأقرع بن حابس فراس ، وإنما قيل له الأقرع لقرع كان برأسه ، وكان شريفاً فى الجاهلية ، وقد جاء أنه قتل فى موقعة اليرموك فى عشرة من بنيه فرضى الله عنه وأرضاه .

قوله (فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً)الولد يطلق على الذكر والأنثى ، والواحد والكثير ، وإنما قال ذلك تعجباً من صنيع النبى صلى الله عليه وآله وسلم كأنما ينكر ذلك ، وهو من جفاء النفس ، وقسوة القلب ، لحداثتهم بالإسلام،وقرب عهدهم بالجاهلية وغلظتها وتجبرها .

قوله (فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال من لا يرحم لا يرحم) فى نظره ﷺ إليه إنكار لإنكاره، وتعجب من تعجبه — وفى قوله (من لا يرحم لا يرحم) إيذان بأن ما كان عليه الأقرع من كونه لم يقبل أحداً من ولده —وهم عشرة — من الجفاء وقسوة القلب .

لأن تقبيل الأولاد من الرحمة، ومن يرحم الناس يرحمه الله،لأن الرحمة من الإحسان ولا جزاء للإحسان إلا الإحسان .

وقد اختلف أهل العلم فى (من) هل هى موصولة فالفعلان مرفوعان ، أوهى شرطية فهما مجزومان — فرجح السهيلى الحمل على الخبر وأن الفعلين مرفوعان ورجح آخرون أن تكون (من)شرطية ، لأنه يصير الكلام من باب ضرب المثل ، وأياماً كان فكلاهما جائز .

قال ابن حجر . وفى جواب النبى ﷺ للأقرع إشارة إلى أن تقبيل الولد وغيره من الأهل المحارم، وغيرهم من الأجانب إنما يكون الشفقة والرحمة، لا للذة والشهوة ، وكذا الضم والشم والمعانقة .

ووقع فى حديث جرير فى رواية لمسلم(من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) وهو عند الطبرانى بلفظ (من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء) والطبرانى كذلك من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً(ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء) .

وهو فى حديث عبد الله بن عمرو عند أبى داود والترمذى والحاكم بلفظ (ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) .

وفى حديث الأشعث بن قيس عند الطبرانى فى الأوسط (من لم يرحم المسلمين لم يرحمه الله) ذكر ذلك كله ابن حجر فى الفتح ثم قال .

قال ابن بطال : فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق. فيدخل المؤمن والكافر والبهائم ، المملوك منها وغير المملوك ، ويدخل فى الرحمة التعاهد بالإطعام والسقى ، والتخفيف فى الحمل وترك التعدى بالضرب .

وقال ابن أبى جمرة : يحتمل أن يكون المعنى من لا يرحم غيره بأى نوع من الإحسان لا يحصل له الثواب كما قال تعالى . (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) .

ويحتمل أن يكون المراد من لا يكون فيه رحمة الإيمان فى الدنيا لا يرحم

فى الآخرة) أو من لا يرحم نفسه بامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه لا يرحمه الله لأنه ليس له عنده عهد ، فتكون الرحمة الأولى بمعنى الأعمال والثانية بمعنى الجزاء ، أى لا يثاب إلا من عمل صالحاً ، ويحتمل أن تكون الأولى الصدقة والثانية البلاء ، أى لا يسلم من البلاء إلا من تصدق ، أو من لا يرحم الرحمة التى ليس فيها شائبة أذى لا يرحم مطلقاً ، أو لا ينظر الله بعين الرحمة إلا لمن جعل فى قلبه الرحمة ولو كان عمله صالحاً — انتهى ملخصاً — ثم قال وينبغى للمرء أن يتفقد نفسه فى هذه الأوجه كلها ، فما تصرفيه لجأ إلى الله تعالى فى الإعانة عليه .

والله المستعان ، لاحول ولا قوة إلا به
ولا ملجأ منه إلا إليه

٣٥- أَعْطِ كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّه

عن أبى جُحَيْفَةَ رضى اللهُ عنه أنه قال (آخَى النبىُّ ﷺ بينَ سلمانَ وأبى الدرداءِ، فزار سَلْمَانُ أبا الدرداء، فوجد أمَّ الدرداءِ مُتَبَذِّلَةً قال: ما شأنُك؟ قالت: أخوك أبو الدرداءِ ليس له حاجةٌ فى الدنيا، فجاء أبو الدرداءِ فصنع له طعاماً فقال: كُلْ فإنى صائم، قال: ما أنا بآكلٍ حتَّى تأكلَ فأكل، فلما كان الليلُ ذهب أبو الدرداء يقومُ فقال: نَمْ، فنام، ثم ذهب ليقومَ فقال: نَمْ، فلما كان آخرُ الليل قال سَلْمَانُ: قم الآن، قال: فصلَّيا، فقال له سلمانُ: إنَّ لربِّك عليك حقاً، ولنفْسِك عليك حقاً، ولأهلِك عليك حقاً، فأعْطِ كلَّ ذى حقٍّ حقَّه، فأتى النبىَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكر ذلك له فقال: صدقَ سلمانُ.

الشرح والبيان

هذا الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الأدب — باب حق الضيف، كما أخرجه فى كتاب الصيام — باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له.

وأبو جحيفة: هو وهب بن عبد الله السوائى.

قدم على النبى ﷺ فى أواخر عمره، وحفظ عنه، وصحب عليا بعد، وولاه شرطة الكوفة لما ولى الخلافة، وفى الصحيح عنه: رأيت النبى ﷺ وكان الحسن بن على يشبهه، وأمرلنا بثلاثة عشر قلوصا، فمات قبل أن نقبضها، وكان على يسميه: وهب الخير، روى عن النبى ﷺ وعن بعض أصحابه، وروى عنه ابنه عون، والشعبى، وأبو إسحاق السبيعى، وغيرهم.

قال ابن حبان : مات سنة أربع وستين ، فرضي الله عنه وأرضاه .

قوله (آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء) .

قال ابن حجر : ذكر أصحاب المغازي أن المؤاخاة بين الصحابة وقعت مرتين : الأولى قبل الهجرة وبين المهاجرين خاصة على المواساة والمناصرة فكان من ذلك أخوة زيد بن حارثة وحمزة بن عبد المطلب . . . ثم آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجر ، وذلك بعد قدومه المدينة ، وسيأتي في كتاب « البيوع » حديث عبد الرحمن بن عوف : لما قدمنا المدينة آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع - انتهى .

وكان ابتداء هذه المؤاخاة خاصة بعد الهجرة ، ولم تقع دفعة واحدة ، بل كان النبي ﷺ يؤاخي بين من يأتي بعد ذلك - وهلم جرا - وكان من أحكامها وقوع التوارث بسببها حتى نزل قوله تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) وذلك عقب غزوة بدر ، ولذلك يقول الزهري : قطعت بدر المواريث .

وقد ظن بعض أهل العلم وقوع هذه المؤاخاة دفعة واحدة ، كما ظن بعضهم بقاء حكم التوارث بها ، لهذا أنكر بعضهم وقوع هذه المؤاخاة بين من تأخر إسلامهم عن الهجرة ، ولم يشهدوا بدرا . وبما قدمنا ينحل الإشكال والله الموفق .

<u>وأما سلمان</u> : فهو سلمان الفارسي وكنيته أبو عبد الله ، وكان إذا قيل له : ابن من أنت ؟ قال : أنا سلمان ابن الاسلام من بني آدم .

وكان قد سمع بأن النبي ﷺ سيبعث ، فخرج في طلب ذلك فأسر ، وبيع بالمدينة ، واشتغل بالرق ، وقد تداوله بضعة عشر سيدا .

قال ابن عبد البر : أول مشاهده الخندق ، وهو الذي أشار بحفره ،

فقال أبو سفيان وأصحابه إذ رأوه : هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، وقد قيل : إنه شهد بدرا وأحدا إلا أنه كان عبدا يومئذ ، والأكثر أن أول مشاهده الخندق ، ولم يفته بعد ذلك مشهد مع رسول الله ﷺ ، وكان خيرا فاضلا ، حبرا عالما زاهدا متقشفا ، وأخباره كثيرة ، وسيرته عطرة .

وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به ، وكان ينسج الخوص ، ويأكل من عمل يده ، مات سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وقيل : بل سنة اثنتين وثلاثين وهو الراجح فرضى الله عنه وأرضاه ، وأكرم منزله ومثواه .

وأما أبو الدرداء : فاسمه عويمر ، وهو مشهور باسمه وكنيته جميعا ، واختلف فى اسم أبيه على أقوال كثيرة فقيل : عامر أو مالك ، أو عبد الله أو زيد - وأبوه ابن قيس بن عامر الخزرجى الأنصارى .

أسلم يوم بدر ، وشهد أحدا وأبلى فيها ، قال رسول الله ﷺ يوم أحد (نعم الفارس عويمر) وقال : هو حكيم أمتى .

قال ابن حبان : ولاه معاوية قضاء دمشق فى خلافة عمر .

روى عن النبى ﷺ وعن طائفة من أصحابه

وروى عنه ابنه بلال وزوجته أم الدرداء وجماعة من التابعين .

قال الواقدى . مات سنة اثنتين وثلاثين

فرضى الله عنه وأرضاه .

قوله (فزار سلمان أبا الدرداء فوجد أم الدرداء متبذلة) .

أم الدرداء . هى الصحابية الجليلة الفاضلة ، واسمها خيرة بنت أبى حدرد . ويقال لها أم الدرداء الكبرى تمييزا لها عن أم الدرداء الصغرى ، وهى أخرى تزوجها أبو الدرداء واسمها هجيمة أو جهيمة .

قال ابن عبد البر . كانت أم الدرداء الكبرى من فضل النساء ، وعقلائهن ، وذوات الرأى فيهن ، مع العبادة والنسك . توفيت قبل أبى الدرداء ، وذلك بالشام فى خلافة عثمان . وكانت قد حفظت عن النبى ﷺ وعن زوجها وروى عنها جماعة من التابعين . فرضى الله عنها وأرضاها .

وقوله (متبذلة) أى لابسة ثياب البذلة - بكسر الباء وسكون الذال - وهى المهنة وزنا ومعنى والمراد أنها تاركة لبس ثياب الزينة .

وقوله (قال : ما شأنك ؟) وعند الترمذى (ما شأنك يا أم الدرداء متبذلة ؟) .

وقولها (أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا) زاد ابن خزيمة (يصوم النهار ويقوم الليل) ، وهذا كله كناية لطيفة عن اعتزال زوجها لها ، وبعده عنها ، ولذلك فإنها ليست فى حاجة لتأخذ ثياب زينتها .

على أنه وقع التصريح بذلك فى بعض الروايات بقولها (ليس له حاجة فى نساء الدنيا) .

قوله (فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما) فى رواية الترمذى (فرحب بسلمان وقرب إليه طعاما) .

قوله (فقال له : كل فقال : إنى صائم) القائل (كل) هو سلمان والمجيب بقوله إنى صائم هو أبو الدرداء .

وقوله (ما أنا بآكل حتى تأكل) هو سلمان ، فالحاصل أن سلمان رضى الله عنه امتنع عن الأكل حتى يأكل أبو الدرداء ، وغرضه أن يصرفه عن رأيه فيما يصنعه من جهد نفسه فى العبادة وغير ذلك مما شكته إليه امرأته ، وفى رواية البزار أن سلمان أقسم على أبى الدرداء أن يفطر ولفظها (أقسمت عليك لتفطرن) .

وقوله (فلما كان الليل) أى أول الليل، وكان هنا تامة بمعنى حدث أو جاء. وقوله (ذهب أبو الدرداء يقوم) أراد القيام ليصلى ويتهجد (فقال: نم فنام، ثم ذهب ليقوم فقال: نم) هذا يدل على أن أبا الدرداء أراد القيام للتهجد مرتين، إحداهما أول الليل بعد أن كان قد رقد، والثانية بعد ذلك قبل السحر - يدل على ذلك ما بعده.

وقوله (فلما كان آخر الليل) أى فى وقت السحر (قال سلمان: قم الآن - قال: فصليا).

وفى أمر سلمان لصاحبه وأخيه بالنوم مرتين حين استيقظ — ثم أمره بالقيام فى السحر دليل على أنه لم يكن مستغرقا فى النوم، وقد كان سيد المرسلين وإمام الخلق أجمعين تنام عيناه ولا ينام قلبه.

وقوله (فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه).

أما حق الله فعبادته والإقبال عليه، وأن نخلص له الدين، وأن نتقرب إليه بما افترضه، وشرعه، ورضيه، وأذن فيه.

وأما حق النفس فأن نرفق بها ونعطيها من الراحة والنعمة ما يعينها على القيام بحقوق الله وحقوق الأهل والدين، وألا نجهدها بالعبادة حتى تمل أو تسأم — وفى الحديث (خذوا من الأعمال ما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا) (إن المُنبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى)(١).

وأما حق الأهل: فالمراد به ملاطفتهم ومؤانستهم، والجلوس معهم وقضاء حاجاتهم، وأن يجعل لهم من نفسه وقتا يستروحون إليه فيه.

---

(١) رواه البزار — انظر كشف الخفا للعجلونى ١ / ٣٠٠. والمنبت: هو الذى يجهد دابته فى السير، فلا هو أبقى على دابته، ولا وصل إلى غايته.

والأهل هم الأسرة والأقارب ونحوهم .

وقد يراد بالأهل الزوجة فقط ، ولها كل ما سبق إلى جانب عشرتها بالمعروف ، وحقها فى الإقبال عليها ، وتطييب خاطرها ، وقضاء حاجتها وفى القرآن الكريم (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة) (البقرة : ٢٢٨) .

قوله (فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فقال : صدق سلمان) .

وفى رواية الدارقطنى (ثم خرجا إلى الصلاة فدنا أبو الدرداء ليخبر النبى ﷺ بالذى قال له سلمان فقال : يا أبا الدرداء ، إن لجسدك عليك حقا مثل ما قال سلمان) ـ قال ابن حجر : فى هذه الرواية أن النبى ﷺ أشار إليهما بأنه علم بطريق الوحى ما دار بينهما ، وليس ذلك فى رواية البخارى ـ فيحتمل الجمع بين الأمرين أنه كاشفهما بذلك أولا ، ثم أطلعه أبو الدرداء على صورة الحال فقال له . صدق سلمان . وروى هـذا الحديث الطبرانى . وعينت روايته الليلة التى بات سلمان فيها عند أبى الدرداء ، ولفظها (كان أبو الدرداء يحيى ليلة الجمعة ويصوم يومها فأتاه سلمان الحديث) .

ما يؤخذ من الحديث .

وفى الحديث مشروعية المؤاخاة فى الله ، وزيارة الإخوان والمبيت عندهم ، وجواز مخاطبة الأجنبية للحاجة ، والسؤال عما يترتب عليه المصلحة وإن كان فى الظاهر لا يتعلق بالسائل ، وفيه النصح للمسلم وتنبيه من غفل . وفضل قيام آخر الليل وفيه مشروعية تزيين المرأة لزوجها ، وثبوت حق المرأة على الزوج فى حسن العشرة ، وقد يؤخذ منه ثبوت حقها فى الوطء لقوله (وإن لأهلك عليك حقا) ثم قال (وائت أهلك) وقد قرره النبى ﷺ على ذلك بقوله (صدق سلمان) .

وفيه جواز النهى عن المستحبات إذا خشى أن تفضى إلى الملل والسآمة، وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة والمندوبة التى يرجح فعلها على فعل المستحب المذكور .

وفيه كراهية المشقة على النفس فى العبادة - ويؤيده حديث عائشة عند البخارى وغيره عن النبى ﷺ (خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا وأحب الصلاة إلى النبى ﷺ ما دووم عليه وإن قلت ، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها) .

وفيه جواز الفطر من صوم التطوع - وهو قول الجمهور، ولم يوجبوا عليه القضاء إلا أنه يستحب له ذلك عندهم .

- وعن مالك التفرقة بين ما إذا كان عذر أو لم يكن ، فإن كان ثمت عذر جاز الفطر ولا يجب القضاء ، وإن لم يكن ثمت عذر فلا يجوز الفطر ، فإن أفطر وجب القضاء .

- وقال أبو حنيفة : يلزمه القضاء مطلقا .

ولتوجيه هذه الأقوال والاستدلال لها ومناقشتها موطن آخر .

وفى الحديث جواز التكلف للضيف ، وصنع الطعام له زيادة عما هو عند المضيف .

ووقع فى التكلف للضيف حديث لسلمان رضى الله عنه (نهانا رسول ﷺ أن نتكلف للضيف) أخرجه أحمد والحاكم وفيه قصة سلمان مع ضيفه حيث طلب منه زيادة على ما قدم له ، فرهن مطهرته بسبب ذلك ، ثم قال الرجل لما فرغ : الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا ، فقال له سلمان . لو قنعت ما كانت مطهرتى مرهونة .

ويجمع بين الأمرين أنه نهى عن التكلف إذا كان فيه عسر وإرهاق للضيف ، وأما التكلف الذى لا مشقة فيه ولا إرهاق فلا بأس به ، وهو من باب إكرام الضيف ، وخاصة فى اليوم والليلة الأولى . ودليله ما وقع فى الصحيح من حديث أبى شريح العدوى (جائزته يوم وليلة)

وفى الحديث أن الصحابة متفاوتون فى علمهم بالدين ، وفقههم فيه مع استواء كثير منهم فى حظهم من صحبة النبى ﷺ .

وفيه فضل العلماء والفقهاء والحكماء وأهل البصر والدين والغوص على معرفة دقائقه وحقائقه .

وفيه فضل أبى الدرداء واجتهاده فى العبادة ، وفضل سلمان ومبلغ علمه وفقهه .

وفيه غير ذلك ، والله أعلم وهو أجل وأحكم .

٣٦ — حق الطريق

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا : يارسول الله مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال : إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ،

قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

الشرح والبيان

قوله ﷺ : (إياكم) للتحذير ، وقوله (والجلوس) بالنصب وقوله (على الطرقات) وفي رواية أخرى (بالطرقات) وكلاهما في الصحيح ، الطرقات جمع طرق وهي جمع طريق ، فهي جمع الجمع .

وفي حديث أبي طلحة عند مسلم (كنا قعودا بالأفنية جاء رسول الله ﷺ فقال : مالكم ولمجالس الصعدات) زاد سعيد بن منصور من مرسل يحيى بن يعمر (فإنها سبيل من سبيل الشيطان أو النار(١) قوله . (فقالوا يارسول الله مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها) البد هو المناص والمهرب والعوض ومعنى العبارة . أي لا غنى لنا عن هذه المجالس لأننا نتحدث فيها في مصالحنا وأمور معايشنا ونروح عن نفوسنا ، قال القاضي عياض رحمه

---

(١) الأفنية . جمع فناء — بكسر الفاء ونون مفتوحة ومد — وهو المكان المتسع أمام الدار ، والصعدات — بضم الصاد والعين — وهو المكان المتسع . أمام الدار . وهو جمع الجمع ويلتحق بما ذكرنا في معناه من الجلوس في الحوانيت وفي الشبابيك المشرفة على الدار حيث تكون في العلو

الله : فيه دليل على أن أمره لهم لم يكن للوجوب وإنما كان على طريق الترغيب والأولى ، إذ لو فهموا الوجوب لم يراجعوه هذه المراجعة ، وقد يحتج بها من لا يرى الأوامر على الوجوب .

وقد عقب ابن حجر على كلام القاضي بقوله . (ويحتمل أن يكونوا رجوا وقوع النسخ تخفيفا لما شكوا من الحاجة إلى ذلك ، ويؤيده أن في مرسل يحيى بن يعمر (فطن القوم أنها عزمة) ، ووقع في حديث أبي طلحة فقالوا . (إنا قعدنا لغير ما بأس ، قعدنا نتحدث ونتذاكر) .

والأمر هنا يفهم من قوله عليه الصلاة والسلام . (إياكم) فإنه بمعنى احذروا واجتنبوا وهكذا نرى أن القاضي رحمه الله يرى أن في مراجعتهم له ﷺ دليلا على أن الأمر لم يكن للوجوب ، وأما الحافظ فإنه يرى أن الأمر محتمل للوجوب وللندب ، ويميل إلى أنه للوجوب لما ساقه من مرسل يحيى بن يعمر . قوله . (فإذا أبيتم إلا المجلس) في حديث عائشة عند الطبراني في الأوسط (فإن أبيتم إلا أن تفعلوا) في مرسل يحيى بن يعمر (فإن كنتم لابد فاعلين) .

قوله . (فأعطوا الطريق حقه) في رواية حفص بن ميسرة (حقها) والطريق يذكر ويؤنث .

قوله . (قالوا ، وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال . غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

وقد وردت في هذا روايات أخرى اشتملت على زيادات ففي حديث أبي طلحة زاد (وحسن الكلام) وفي حديث أبي هريرة زاد (وإرشاد ابن السبيل وتشميت العاطس إذا حمد)

وفي حديث عمر عند أبي داود ومرسل يحيى بن يعمر من الزيادة وتغيث الملهوف وتهدي الضال) وهو عند البزار بلفظ (إرشاد الضال)

وفى حديث البراء عند أحمد والترمذى (اهدوا السبيل وأعينوا المظلوم وافشوا السلام) .

وفى حديث ابن عباس عند البزار من الزيادة (وأعينوا على الحولة) .

وفى حديث سهل بن حنيف عند الطبرانى (ذكر الله كثيرا) .

وفى حديث وحشى بن حرب عند الطبرانى من الزيادة (واهدوا الأغنياء وأعينوا المظلوم) .

ويجمع ذلك كله الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والتزام ذلك كله .

قال ابن حجر : ومجموع ما فى هذه الأحاديث أربعة عشرة أدبا وقد نظمتها فى ثلاثة أبيات وهى :

جمعت آدابَ مَنْ رام الجلوسَ على الطَّريقِ من قولِ خيرِ الخلقِ إنسانا
أفشِ السلامَ ، وأحسِنْ فى الكلام ، وشمِّتْ عاطسا ، وسلامًا رُدَّ إحسانا
فى الحملِ عاوِنْ ، ومظلوماً أعنْ ، وأغث لهفانَ ، اهدِ سبيلاً ، واهدِ حيرانا
بالعرف مُرْ ، وانه عن نكر ، وكُفَّ أذى ، وغُضَّ طرفا وأكثِرْ ذكرَ مولانا

وقد اشتملت هذه الإجابات النبوية الكريمة على علة النهى عن الجلوس على الطرقات والتحذير منها : ذلك أن الجالس فيها يتعرض لأنواع من الفتن والتفريط فى حقوق الله وحقوق الناس ، فإنه يتعرض للفتن برؤية الرائحات والغاديات ، والنظر إليهن وانشغال القلب بذلك ، ويتعرض لإيذاء الناس بتضييق الطريق عليهم أو ابتعادهم عنه إذا كان ممن يستحيا منه إلى غير ذلك ، ويتعرض للتقصير فى رد السلام عليه لكثرة المارين عليه ، ويتعرض كذلك لتعطيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكثرة ما يراه مما يستوجب الأمر والنهى والتوجه والتحذير ، ويتعرض كذلك للتقصير

فى معاونة إخوانه المسلمين وأداء حقوقهم من إعانة مظلومهم ، وإغاثة ملهوفهم ، وتشميت عاطسهم، وإلانة الكلام معهم، فيصيب بذلك من الآثام ما لم يكن ليحمله لو أنه قعد فى بيته أو مسجده وابتعد عما يوقعه فى الفتن ، ويعرضه للبلايا والمحن، والمسلم مأمور بأن لا يتعرض للفتن ، وأن لا يلزم نفسه ما لعله لا يقوى عليه ، فندبهم الشارع الحكيم إلى ترك الجلوس حسما للمادة ما قلما ذكروا له ضرورتهم إلى ذلك لما فيه من المصالح : من تعاهد بعضهم بعضا ، ومذاكراتهم فى أمور الدين ، ومصالح الدنيا ، وترويح النفوس بالمحادثة فى ما يباح لهم أذن لهم ﷺ فى الجلوس بشرط أداء حق الطريق فلما سألوه ليستوضحوا هذا الحق بينه بما علمناه وسمعناه .

وما من أدب من هذه الآداب إلا وله شواهد فى أحاديث أخرى، وله مواطن يفصل فيها الكلام عنه ، ولنسق من ذلك ما يوضح هذه الآداب ويلقى عليها ضوءا كاشفا .

فأما إفشاء السلام : فهو إشاعته وإكثاره ، وفى الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، أن رجلا سأل النبى ﷺ (أى الاسلام خير؟ قال: تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)

قال ابن حجر رحمه الله : أى لا تخص به أحدا تكبرا أو تصنعا، بل تعظيما لشعار الإسلام ، ومراعاة لأخوة المسلم .

وهذا القدر متفق عليه بالنسبة للمسلم الصالح، والذى ظاهر أمره الخير والصيانة . أما غير المسلم المتقى المخلص فليس الحال فيهم كذلك ، فاللفظ إذن من العام المخصوص، وقد خصصته أدلة أخرى ليس هذا موضع بسطها .

فالكافر والمنافق والفاسق يختلف الحكم بالنسبة لهم عن المسلم الصالح .

هذا وقد اختلف فى معنى السلام فنقل عياض أن معناه اسم الله أى

كلاءة الله عليك وحفظه ، كما يقال : الله معك وصاحبك : وقيل : إن معناه إن الله مطلع عليك فيما تفعل ، وقيل : معناه إن اسم الله يذكر على الأعمال توقعا لاجتماع معانى الخيرات فيها ، وانتفاء عوارض الفساد عنها .

وقيل : معناه السلامة كما قال تعالى ، فسلام لك من أصحاب اليمين وكما قال الشاعر :

تحيى بالسلامة أم عمرو
وهل لى بعد قومى من سلام

فكأن المسلم أعلم من سلم عليه أنه سالم منه ، وأن لا خوف عليه منه .

وقال ابن دقيق العيد ، السلام يطلق بإزاء معان ، منها السلامة ، ومنها التحية ، ومنها أنه اسم من أسماء الله ، وقد يأتى بمعنى التحية محضا ، وقد يأتى بمعنى السلامة محضا ، وقد يأتى مترددا بين المعنيين ، كقوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى عليكم السلام ، لست مؤمنا) فإنه يحتمل التحية والسلامة ، وقوله تعالى (ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم) .

وأما إحسان الكلام ، فهو آية حسن الخلق وكمال الإيمان ، وطهارة النفس ، وفى التنزيل (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (الفرقان ، ٦٣) (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) (فصلت ، ٣٤) .

وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة) متفق عليه .

ومعنى إحسان الكلام أن يكون طيبا فى معناه ، لينا فى أسلوبه ، يؤلف ولا ينفر ، يجمع ولا يفرق ، يطفىء الغضب ، ويجلب الود ، يسكن الأمور ، ولا يوغر الصدور .

وكثير من أسبابه يكمن فى صفاء النفس ، والتماس المعاذير للخلق ، والعفو عن زلاتهم ، واحتمال أذاهم ، والإحسان إليهم ، واليقين الكامل بأن ذلك ليس سببا للنقصة والضعة ، بل هو سبب للعز والرفعة (وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (فصلت : ٣٥) .

وأما تشميت العاطس ، فمعناه الدعاء له ، مأخوذ من شوامت الدابة ، أى قوائمها ، أى الدعاء له بأن يظل صحيحا معافى ، أو من الشماتة ، أى الدعاء له بأن يبعد الله عنه بإبقائه على الصحة والعافية شماتة الأعداء به .

وهو من حقوق المسلم على المسلم كما ثبت ذلك .

وتشميت العاطس المسلم إذا حمد الله فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، أما إذا لم يسمع منه حمد فلا يشمت .

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال ، عطس رجلان عند النبى ﷺ فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر : فقيل له ، فقال . هذا حمد الله ، وهذا لم يحمد الله) (متفق عليه) .

قال ابن دقيق العيد ومن فوائد التشميت تحصيل المودة والتآلف بين المسلمين ، وتأديب العاطس بكسر النفس عن الكبر ، والحمل على التواضع ، لما فى ذكر الرحمة من الإشعار بالذنب الذى لا يعرى عنه أكثر المكلفين . انتهى .

وأما رد السلام ، فهو فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين

وفيه جاء قوله تعالى (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها ، أو ردوها) (النساء ، ٦٦) قال ابن كثير فى تفسير الآية ، أى إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلم ، فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة ، انتهى .

قال ابن حجر ، اتفقوا على أن من سلم لم يجزى فى جوابه إلا السلام ، ولا يجزىء فى جوابه ، صبحت بالخير أو بالسعادة ونحو ذلك ، انتهى .

وهذا أمر ينبغى أن يتنبه له المسلم فكثير من الناس اليوم يعدل فى رد السلام عن السلام إلى أمور أخرى ، وهذا خطأ شديد ، فإن لم يكن من هذه الأشياء التى يقولها الناس بد فلتكن مضافة إلى السلام لا بديلا له ، والله وحده الموفق .

وأما المعاونة على الحمل ، فهى من أعمال الخير التى يتصدق بها المرء على نفسه لتثقل موازينه . ويتضاعف أجره ، وهى صدقة على أخيه المسلم ، وفى الحديث - عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ (كل سلامى من الناس عليه صدقة - وفيه وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة) متفق عليه والحديث قد مر بتمامه .

وأما إعانة المظلوم ، فهو نصره والوقوف بجانبه حتى يرتفع عنه الظلم وهو من جملة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وفى الحديث الصحيح (انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قالوا ، يارسول الله هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ قال ، نصرك له أن تأخذ فوق يديه) وفى الحديث (المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره) وهو فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وأما إغاثة الملهوف ، فقد مر فى حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه (على كل مسلم صدقة ، وفيه وتغيث ذا الحاجة الملهوف) وهو فى الصحيحين .

وعند ابن حبان من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً (واسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث) ذكره ابن حجر في الفتح ، وذكر عن أنس مرفوعا (والله يحب إغاثة اللهفان) ثم قال : وسنده ضعيف جداً لكن له شاهد من حديث ابن عباس أصلح عنـــه (والله يحب إغاثة اللهفان) .

وأما هداية السبيل : فهو دلالة الإنسان على الطريق ، وهو من الصدقة على النفس وعلى السائل وعلى المجتمع كله بتفريج كربه ، وقضاء حاجاته ، وإشاعة التعاون والألفة بين أعضائه .

وفي الحديث الذي رواه ابن حبان والترمذي مرفوعاً من حديث أبي ذر مرفوعاً (وإرشادك الرجل في أرض الضلال صدقة) .

والسبيل هنا هو السبيل الحسي وهو الطريق ، أما السبيل المعنوي فهو الإسلام وهو دين الله ، ومن هدى إليه ضالا أو أعاد إليه شارداً فله بذلك أجر عظيم وفي الحديث (لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم) .

وأما هداية الحيران : فإنها صنو إرشاد الضال ، وتدخل في مطلق إعانة المسلم لأخيه ، وفي الحديث المروي في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) ، وفي الحديث (كل معروف صدقة) رواه البخاري في الأدب من حديث جابر رضي الله عنه .

وأرض الضلال : هي التي لا يهتدي فيها إلى الطريق ، وأما الحيران والمتحير فهو المتحير في أمره لا يدري كيف يهتدي فيه ، والحيران والحائر : التائه فهناك صلة بين الضال وبين الحيران ، فكل ضال عن الطريق حيران ، وليس كل حيران ضالا ، لأن الحيرة قد يكون لها سبب آخر .

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : فالأحاديث فى الأمر بهما كثيرة ، وكذلك آيات القرآن الكريم . وبهما استحقت هذه الأمة درجة القيادة والإمامة من سائر الأمم ، قال الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) (آل عمران : ١٠٤) .

وقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله) (آل عمران : ١١٠) .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أخص أوصاف المؤمنين ، وإهمالهما وتركهما من أبرز خصائص الفجرة والفاسقين ، قال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر) (التوبة : ٧١) .

وقال (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوه وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون) (المائدة . ٧٨ ، ٧٩) .

وقال (والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر) . وقال (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) (الأعراف : ١٦٥) .

— وعن حذيفة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال (والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

— وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن .

ورواه النسائي بإسناد صحيح من حديث طارق بن شهاب البجلي الأحمسي رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغرز: أي الجهاد أفضل ؟ قال : كلمة حق عند سلطان جائر) .

— وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ (أول مادخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فإنه لايحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء، ولكن كثيراً منهم فاسقون) ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

وعن أبي بكر الصديق أنه قال (ياأيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لايضركم من ضل إذا اهتديتم) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) قال الإمام النووي : رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة .

وأما كف الأذى : فالمراد به كف الأذى عن المارة ، بأن لا يجلس حيث يضيق عليهم الطريق ، أو على باب منزل من يتأذى بجلوسه ، عليه ، أو حيث يكشف عياله ، أو ما يريد التستر به من حاله ، ويحتمل أن يكون المراد أذى الناس بعضهم عن بعض ، وهو من جملة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وفى الحديث الذى روى فى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى (فكف عن الشر فإنها لك صدقة) .

وأما غض البصر : فهو إغماض الأبصار عن المحارم ، والاقتصار بها على المباح ، وقد أمر الله به الرجال ، وأمر به النساء ، وبين أنه طهارة للسيرة والسريرة ، وأن فى التزامه خيرا كثيرا وتوفيقا من الله كبيرا .

قال تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن) (النور : ٣٠ ، ٣١) .

قال ابن كثير : هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يغضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم . فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أصرف بصرى) ،

وأما قوله (ذلك أزكى لهم) أى أطهر لقلوبهم ، وأنقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته) ويروى (فى قلبه)

وأما كثرة ذكر الله فى القرآن الكريم (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما) (الأحزاب : ٤١ —

٤٣) وفيه (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) (الأحزاب : ٣٥) وقال (اتل ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر) (العنكبوت . ٤٥)

وعن عبد بن بسر رضى الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به ، قال : لايزال لسانك رطبا من ذكر الله) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) رواه مسلم والمفردون بوزن المسبحون ، فهو بتشديد الراء وروى بفتحها .

والسر فى الأمر بكثرة ذكر الله عند الجلوس على الطرقات ، لأن الجلوس مظنة الغفلة والانشغال بما يلهى ، إلى جانب أن فى ذكر الله عونا على فعل الخيرات والكف عن السيئات . وهى الأمور التى جاء الحديث بالتنبيه إليها والحث عليها ، وحذر من إهمالها والتفريط فيها لكى يسلم المرء عرضه ودينه وسيرته وسريرته ،

وفى الحديث شفقة الرسول ﷺ على أمته ، والأمر بسد الذرائع ، وأنه قد ينهى فى الشرع عن بعض المباحات لجرها إلى الشبهات أو المحرمات وأن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ، وأن ترك بعض المباحات خشية إفضائها إلى المحرمات ليس من باب الإفراط والتنطع ، بل هو آية التقوى وصدق الإيمان وفى الحديث (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس) رواه الترمذى من حديث عطية بن عروة السعدى رضى الله عنه ، وقال حديث حسن .

والله أعلم ، وهو أجل وأحكم ؟

٣٧- الترغيبُ فى الصدقِ ، والترهيبُ من الكذب

عن عبد اللهِ بنِ مسعودٍ رضى الله عنه أنه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ (عليكم بالصدقِ ، فإن الصدقَ يهدى إلى البرِّ ، وإن البرَّ يهدى إلى الجنة ، ومايزال الرجلُ يصدقُ ويتحرَّى الصدق حتى يُكْتَبَ عندَ الله صِدِّيقا ، وإياكم والكذبَ ، فإن الكذبَ يهدى إلى الفجورِ وإنَّ الفجورَ يهدِى إلى النَّارِ ، ومايزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرى الكذبَ حتى يُكْتَبَ عندَ اللهِ كذَّابا)

متفق عليه ، وهذا اللفظ لمسلم

الشرح والبيان

الصدق فضيلة من أمهات الفضائل ، كما أن الكذب رذيلة من أمهات الرذائل ، فإذا كان الصدق مبدأ كل خير ، فالكذب أساس كل شر .

وفى هذا الحديث يحض الصادق المصدوق ﷺ أمته على لزوم الصدق ويبين لهم مايترتب عليه من ثمرات طيبة ، وعاقبة كريمة ،

كما يحذرهم من الكذب ، ويفصح لهم عما يترتب عليه من آثار وخيمة ونهاية ذميمة .

وبرغم وضوح حقيقة الصدق لدى العام والخاص فقد اختلف أهل العلم فى بيانه .

قال الراغب : أصل الصدق والكذب فى القول ماضيا كان أو مستقبلا وعدا كان أو غيره ، ولايكونان بالقصد الأول إلا فى الخبر . وقد يكونان فى غيره كالاستفهام والطلب . والصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه فإن انخرم شرط لم يكن صدقا ، بل إما أن يكون كذبا أو متردداً بينهما على

على اعتبارين كقول المنافق : محمد رسول الله ، فإنه يصح أن يقال : صدق لكون المخبر عنه كذلك ، ويصح أن يقال عنه كذب ، لمخالفه قوله لضميره والصديق من كثر منه الصدق ، وقد يستعمل الصدق والكذب فى كل ما يحق فى الاعتقاد ويحصل ، نحو صدق ظنى ، وفى الفعل نحو صدق فى القتال ومنه قد صدقت الرؤيا - انتهى .

— وقال الجمهور : الصدق ماطابق الواقع ، والكذب ماخالفه .

— وقال آخرون : الصدق ماطابق الاعتقاد ، والكذب ماخالفه .

وقوله ﷺ (عليكم بالصدق)

أى الزموه واستمسكوا به . فالجار والمجرور اسم فعل أمر .

وقوله ﷺ (فإن الصدق يهدى إلى البر)

الفاء تفيد التعليل) ومعنى (يهدى) يرشد ويوصل ، والهداية هى الدلالة الموصلة إلى المطلوب — والهداية من البشر إرشاد ونصح وبيان ، ومن الله توصيل وتوفيق .

وقد قال الله تعالى فى كتابه لسيد خلقه ﴿إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (القصص : ٥٦)

والبر : اسم جامع للخيرات كلها ، ثم هو التوسع فى فعل الخير ، وهو العمل الصالح الخالص الذى يكسب فاعله أجرا ، ويرفع له قدرا ، وينشر له ذكرا .

وآية البر من أجمع الآيات للخيرات ، وأحفلها بما يرفع الدرجات ، قال تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر

من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب . وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا . والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون) (البقرة : ١٧٧)

وقوله ﷺ (وإن البر يهدى إلى الجنة)

أى يوصل إلى دار النعيم ، قال تعالى (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) (الانفطار ١٣ ، ١٤) وقال (إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون) (المطففين : ٢٢ - ٢٨)

وقوله ﷺ (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا) .

تدل العبارة الشريفة على صحة العزيمة على الصدق ، وقصده والاعتناء ومراعاته لخواطره وأنفاسه وألفاظه ، لا يقول إلا حقا ، ولا ينطق إلا صدقا ، لا يكذب فى هزل ولا جد ، ولا على كبير ولا صغير ، ولا مع طفل أو امرأة .

وإذن فتحرى الصدق هو قصده ، والاعتناء به ، ومراعاة المرء لنفسه فيه .

ومعنى الكتابة — وقد كتب الله فى الذكر كل شىء أزلا — الحكم عليه بذلك ، وإظهاره للمخلوقين من أهل الملأ الأعلى ، وإلقاء ذلك فى قلوب أهل الأرض .

والصديق . هو من كثر منه الصدق . قال ابن بطال المراد أنه يتكرر منه الصدق حتى يستحق اسم المبالغة فى الصدق ، وقال صاحب القاموس : وكسكيت من كثر منه الصدق ، ولقب شيخ الخلفاء أبى بكر رضى الله عنه (القاموس : م/٢٥٣) .

وقوله ﷺ (وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور) .

أى احذروا الكذب ، وتجنبوه ، ثم يعلل ذلك بأن الكذب يقود إلى الفجور ، ويهون على المرء ارتكاب الآثام ، وفعل الحرام ، والفجور : ضد البر ـ فهو اسم جامع لسائر الشرور ، ويطلق على الانبعاث فى المعاصى ، والميل إلى الفساد ، وشق ستر الديانة ـ وأصل الفجر : الشق الواسع .

وقوله ﷺ (وإن الفجور يهدى إلى النار) .

أى يقود إلى دار العـــذاب ، وبئس المآب قال تعالى (وإن الفجار لفى جحيم) .

وقوله ﷺ (وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) .

تدل العبارة على إصرار على الكذب ، وعزيمة على قصده والاعتناء به ، وهو منبئ عن فساد السريرة ، وخبث الطوية ، ولهذا استحق مثل هذا الآفاك الأثيم أن يكتب فى ديوان الكذابين ، وأن يشهر أمره بهذه الرذيلة فى الملا الأعلى وفى أهل الأرض ، ويستحق بذلك المقت واللعن فالكتابة هنا نظير الكتابة فيما سبق ، لكن شتان مابين الكتابتين ، لأن البون بين النوعين بعيد فالصادق جاد فى طلب الخير ، والكاذب جاد فى قصد الشر ، هذا مصعد إلى الجنة وذاك منحدر إلى النار والله تعالى يقول (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) (الحشر : ٢٠) .

هذا والتقييد بتحرى الصدق وتحرى الكذب وقع فى هذه الرواية فى مسلم دون غيرها

قال ابن حجر : وفى هذه الزيادة إشارة إلى أن من توقى الكذب بالقصد الصحيح إلى الصدق صار الصدق سجية له حتى يستحق الوصف بذلك ، وكذلك عكسه .

وليس المراد أن الحمد والذم فيهما يختص بمن يقصد إليها فقط ، وإن كان الصادق فى الأصل ممدوحا ، والكاذب فى الأصل مذموما . انتهى

ومعنى هذا الكلام أن المتصف بالصدق ممدوح موفق ، لكن إذا ترقى عن مجرد قول الصدق إلى قصد الصدق وتحريه ولزومه فى سائر الأفعال والأحوال فهو بالمدح أولى ، وبالتوفيق أجدر وأحرى ، وما يزال به ذلك حتى ينشر الله له بذلك ذكرا، ويعرف بهذه الصفة العظيمة فى أهل السموات وأهل الأرض .

كذلك المتصف بالكذب مذموم مخذول ، لكن إذا خبثت نفسه ، وترقى عن مجرد الكذب إلى قصده وتحريه ، وصار الكذب أحب إليه من الصدق والحق فهو بالذم أولى ، وبالخذلان والحرمان أجدر وأحرى ، ولا يزال يذهب بنفسه فى الكذب حتى يعرف بهذه الصفة فى السموات والأرض فيكون مقيتا ممقتا .

هذا والصدق فى القول ، والعمل ، النية ، والوعد من أخص أوصاف الصالحين ، وأبرز صفات المتقين ، كما أن الكذب وخلف الوعد ، ونكث العهد من أخص صفات الفجار والمنافقين .

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) التوبة : ١١٩

وقد أثنى الله على المهاجرين وبين سبحانه صدقهم فى إيمانهم وهجرتهم ، وابتغائهم بذلك كله وجه ربهم فقال سبحانه (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون) الحشر : ٨

وقال (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) القتال : ٢١

وقال (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا) الأحزاب : ٢٣

وقال (إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما (الأحزاب : ٣٥)

— وعن الحسن بن على أبن أبي طالب رضى الله عنهما أنه قال حفظت من رسول الله ﷺ (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة) رواه الترمذى ، وقال : حديث صحيح .

ويريب بفتح الياء من راب ، أو ضمها من أراب — ومعنى الحديث : دع ما تشك فى حله إلى ما تتيقن حله ، ولا تشك فيه .

— وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال (من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) . رواه مسلم .

— وعن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) متفق عليه .

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال (من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم

وهم له كارهون أو يفرون منه صب فى أذنه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ) رواه البخارى .

ومن أشد أنواع الكذب أن يكذب أحد على رسول الله ﷺ ويقول عليه مالم يقل . قال عليه الصلاة والسلام (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) وهو حديث صحيح مشهور متواتر عن جمع غفير من الصحابة وغيرهم رضى الله عنهم .

وكان كثير من أصحابه ﷺ ورضى الله عنهم يؤثرون الإقلال من رواية الحديث عنه حتى لا يقعوا فى الخطأ والكذب من حيث لا يشعرون ، فقد أخرج البخارى وغيره عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال لأصحابه وتلاميذه (إنه ليمنعنى أن أحدثكم حديثا كثيرا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)وقد بين ﷺ أن الذى يحدث بكل مايسمعه من الناس واقع فى الكذب،وهو نصيحة للمرء بالروية والأناة والتثبت قال ﷺ (كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ماسمع) رواه مسلم .

وقد أمر ﷺ بالتثبت فى الحديث عنه ، وبين أن من حدث عنه بحديث يعلم أو يظن أنه كذب فهو أحد الكاذبين . قال ﷺ فيما رواه سمرة ابن جندب رضى الله عنه ، (من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين) رواه مسلم. و (يرى) بفتح الراء بمعنى (يعلم) وبضمها بمعنى يظن ، وفى الكاذبين روايتان : التثنية والجمع .

ومن أقبح أنواع الكذب وأشدها شناعة الكذب من الحاكم ، لأنه ليس له إلى ذلك حاجة ، ويترتب عليه من الفساد والخيانة وارتفاع الثقة به وبيطانته ما يصعب تداركه ، ويعسر تلافيه ، — عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر اليهم

ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر) رواه مسلم .

ومن أقبح الكذب شهادة الزور وقول الزور فهى من أكبر الكبائر وأجل الفجور ، فإذا انضم إليها يمين فاجرة فهى قاصمة الظهر ، فعن أبى بكرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا: بلى يارسول الله ، قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ،وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور — فما مازال يكررها حتى قلت : ليته سكت) حديث صحيح متفق عليه — والقائل . أبو بكرة راوى الحديث(١) .

— وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة ، فقال له رجل : وإن كان شيئا يسيرا يارسول الله ؟ قال : وإن كان قضيبا من أراك) رواه مسلم .

وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ البيعان بالخيار مالم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما) متفق عليه .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال (اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم) رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ (رأيت

---

(١) أنظر الكلام على الحديث ص ٥٤ من هذا الكتاب .

الليلة رجلين أتياني قالا لي : الذي رأيته يشق شدقه كذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة — رواه البخاري في كتاب الأدب في الصحيح .

وفي هذا الحديث تحذير شديد للمشتغلين بالأمور العامة من الصحفيين ورجال الاعلام ، ورجال السياسة وغيرهم من الذين لا دين لهم ولا دين إلا ترويج ما يعتنقون بما يعلمون أن أكثره كذب وإفك، وزور وبهتان ، وفي الاسلام عصمة لمن تمسك به ، نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طعمة) رواه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي بأسانيد حسنة [الترغيب والترهيب ٣/٨٤٠]

هذا ونسأل الله بمنه وكرمه أن يطهرنا من كل سوء، ويغفر لنا كل زال، وأن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يختم لنا بخير أجمعين — اللهم آمين .

دليل الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
١ ـ أى العمل أحب الى الله تعالى	٦
٢ ـ أحق الناس بحسن الصحبة	١٧
٣ ـ " ان الله حرم اعليكم عقوق الأمهات "	٢٤
٤ ـ لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة	٣٢
٥ ـ ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه	٤١
٦ ـ الا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟	٤٥
٧ ـ هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟	٥٣
٨ ـ من سره أن يبسط له فى رزقه	٥٦
٩ ـ ان الله خلق الخلق حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم	٦٤
١٠ ـ الرحم شجنة من الرحمن	٧٠
١١ ـ ليس الواصل بالمكافىء	٧٢
١٢ ـ من يلى من هذه البنات شيئا	٧٤
١٣ ـ ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة	٧٩
١٤ ـ ما زال جبريل يوصينى بالجار	٨٧
١٥ ـ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره	٩٣
١٦ ـ اذا أحب الله العبد نادى جبريل	٩٩
١٧ ـ ان الله يقول يوم القيامة .. أين المتحابون بجلالى	١٠٤

الموضوع	الصفحة
١٨ـ كل أمتى معافى الا المجاهرين	١٠٨
١٩ـ يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه	١١٢
٢٠ـ إياكم والظن فان الظن الكذب الحديث	١١٦
٢١ـ المسلم أخو المسلم	١٢٧
٢٢ ـ إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم	١٣٥
٢٣ ـ لا تغضب	١٣٨
٢٤ ـ النهى عن السباب واللعن	١٤٤
٢٥ ـ ما تعدون الرقوب فيكم	١٥٠
٢٦ ـ استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٥٢
٢٧ ـ من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا	١٥٨
٢٨ ـ أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين	١٧٨
٢٩ ـ ما نقص مال من صدقة	١٨١
٣٠ ـ على كل مسلم صدقة	١٨٧
٣١ ـ لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا	١٩٥
٣٢ ـ إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٠٠
٣٣ ـ إن الله أوحى الى أن تواضعوا	٢٠٣
٣٤ ـ قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن	٢٠٥
٣٥ ـ آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء	٢٠٩
٣٦ ـ اياكم والجلوس على الطرقات	٢١٧
٣٧ ـ عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر	٢٢٩